فيودور دوستويفسكي
ما له وما عليه

صور قلمية من مذكرات زوجة الكاتب



ترجمة وإعداد
خيري الضامن



طبعة جديدة منقحة ومزيدة

فيودور دوستويفسكي
ما له وما عليه

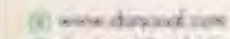
صور قلمية من مذكرات زوجة الكاتب

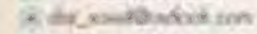
رشّحني أستاذي في الاختزال لتسجيل المقامر بثلاثين صفحة وبأجر ٥٠ روبلاً. خلق فيّ فرحاً للتعرف على كاتب كنت أبكي عندما أقرأ روايته مذكرات من البيت الميت.
تصورته شيخاً بعمر والدي، عبوساً كئيباً كما يتصوره الكثيرون. وجئت إليه في الموعد المحدد. كان يقيم في شقة متواضعة بعمارة ضخمة يسكنها تجار وباعة وحرفيون. وذكّرتني في الحال بالعمارة التي يقيم فيها راسكولنيكوف بطل **الجريمة والعقاب**. مكتبه واسع بنافذتين مفتوحتين أيام الصحو، لكن جوّه فيما عدا ذلك حالك ساكن يثقل على النفس. وعندما رأيته لأول مرة خيّل إليّ أنه عجوز بالفعل، ولكن ما إن تحدث معي حتى تضاءلت سنّه وبدا لي في الخامسة والثلاثين.
كان متوسط البنية معتدل القامة، شعره كستنائي فاتح أقرب إلى الأشقر، مدهون ومصفوف بأناقة. وجهه شاحب كوجوه المرضى، يرتدي سترة من الجوخ الأزرق تكاد تكون بالية، إلا أن قميصه ناصع البياض بياقة منشاة وردفين بازرّين. ولكنّ ما أدهشني فيه هو عيناه، لاختلافهما الواضح. إحداهما بنية، وفي الأخرى بؤبؤ متّسع يحتل فضاء العين ويأتي على معظم القزحية، مما يجعل من نظراته لغزاً من الألغاز.

آنا غريغوريفنا











دوستويفسكي: ما له وما عليه

دوستويفسكي: ما له وما عليه

صور قلمية من مذكرات زوجة الكاتب

ترجمة وإعداد

خيري الضامن

(طبعة جديدة منقّحة ومزيّدة)



الطبعة الأولى، 2018
عدد الصفحات: 120
القياس: 5. 14 × 5. 21

دار سؤال للنشر وخيري الضامن
لبنان - بيروت
الحمراء - شارع ليون - بناية برج ليون - الطابق السادس
ص.ب: 58-360-11
هاتف: 740437 1 00961

www.darsoual.com
@darsouall2014
dar_souaal@outlook.com
Dar Soual

ISBN: 978-614-8020-50-6

تنويه

هذه الصور القلمية من مذكرات زوجة دوستويفسكي الثانية آنّا غريغوريفنا خلاصة مركّزة تلقي ضوءاً مكثفاً على الأحداث الواردة في رسائله (صدرت بالعربية في ترجمتي بجزئين في 1056 صفحة عن دار سؤال البيروتية عام 2017) وتشكل إضافة قيّمة إلى سيرة الكاتب الروسي العظيم خلال الخمسة عشر عاماً الأخيرة من حياته. كنت قد أعددتها في حينه بمثابة سيناريو لفيلم وثائقي عن الكاتب العالمي الشهير، ونشرتها لأول مرة في مجلة «نزوى» (عدد 1 يوليو 1998) ثم تناقلتها وسائل الإعلام الإلكترونية والورقية العربية وطبعت، من دون علمي، عشرات المرات. ومن الإصدارات الأخيرة طبعة ورقية مشوَّهة نفذتها إحدى أكبر دور النشر العراقية عام 2015 نقلاً عن طبعة عربية مقرصنة أخرى. وأنا بطبيعة الحال مستاء جداً من الطبعتين، كونهما احتوتا على ما يزيد عن مائة خطأ نحوي ومطبعي، ووردت أسماء بعض الروائيين الروس فيهما بثلاث صيغ مختلفة، كما تضمنتا شروحاً إضافية ما أنزل اللّه بها من سلطان. إنها شروح هزيلة مشحونة بالأخطاء أُلصِقت بترجمتي

وأنا لا أعرف كاتبها. ومما يزيد في حزني أنني كنت أعتبر دار النشر العراقية داراً صديقة سبق أن أصدرت بعض تراجمي الأدبية من دون مقابل.

ولذا رأيتُ أن تتولى دار سؤال اللبنانية مشكورة إصدار طبعة جديدة منقّحة من قبلي ومزودة بمقدمة غير منشورة في الطبعات غير المرخصة لاثنين من كبار الباحثين الروس المتخصصين في أدب دوستويفسكي.

العناوين والترقيم وما ورد في المتن بين هلالين من إعدادي.

المترجم

موسكو 1/ 1/ 2018



آنا غريغوريفنا دوستويفسكايا



المقدمة

آنّـا دوستويفسكايا ومذكراتها

في معرض الحديث عن انطباعات لقائه مع آنّا غريغوريفنا قال الممثل المسرحي الروسي المعروف ليونيد ليونيدوف (1873-1941): «رأيت وسمعت شيئاً لم يسبقه مثيل، ومن خلال هذا الذي رأيته وسمعته، من خلال لقائي القصير مع أرملة دوستويفسكي لمست الكاتب لمس اليد وتحسست أنفاسه تحوم حولي. إن مئة كتاب عن دوستويفسكي لا تعطيني ما أعطاني إياه ذاك اللقاء في عشر دقائق. وأنا واثق أن جواً من هذا النوع كان دوماً يكتنف علاقاته مع زوجته. . .»

ولعلنا نقول إن كلام ليونيدوف هذا يمكن أن يدور بنفس القدر عن مذكرات آنّا دوستويفسكايا التي تشغل مكانة متميزة تماماً بين المطبوعات الوفيرة الحاوية على معلومات متناقضة عن الكاتب. ذلك لأن مذكرات زوجته عبارة عن حديث شيق يستند إلى وقائع دقيقة من حياة الكاتب في أكثر مراحل إبداعه خصباً وعطاءً ، في السنوات 1866-1881 التي أبدع فيها

رواياته التراجيدية الشهيرة ابتداءً بـ«الجريمة والعقاب» وانتهاءً بـ«الإخوة كارامازوف».

* * *

وُلدت آنّا دوستويفسكايا في 30 أغسطس 1846 في عائلة أحد صغار موظفي بطرسبورغ. وكان أبوها غريغوري سنيتكين يتحلى بدماثة الخلق وخفة الطبع والبشاشة، وقد أولع في شبابه بالأدب والمسرح وأعجب بنتاج دوستويفسكي أشد الإعجاب. وكانت آنّا قد سمعت بهذا الاسم لأول مرة من أبيها. وفي السادسة عشرة من العمر قرأت رواية «نيتوتشكا نيزفانوفا» وأولعت بها حتى صار أهلها ينعتونها باسم «نيتوتشكا» بطلة الرواية. وعندما طالعت رواية «مذكرات من بيت الأموات» ذرفت دموعاً حرّى. وقد غدا دوستويفسكي كاتبها المحبب منذ الفتوة.

أما والدتها، وهي سويدية من أصل فنلندي، فقد كانت، على عكس زوجها المولع بالمثاليات، امرأة نشيطة سليطة تتولى شؤون المنزل وحدها. وقد هيأت طباع الأب وصراحته وبشاشته واعتداله جواً هادئاً بهيجاً جداً في حياة الأسرة. فأمضت آنّا سنوات الصبا في وئام واطمئنان دون أن تشغل بالها بالتفكير كثيراً بالمستقبل، حتى أنها أهملت بعض الشيء دروس الاختزال التي حظيت بإقبال كبير بين الفتيات في تلك الفترة على يد البروفسور أولخين. إلا أن ولعها بالاختزال في عهد الصبا سرعان ما لعب دوراً بالغاً في حياتها. ففي عام 1866

توفي أبوها، وتبدلت أوضاع الأسرة. ولم ترغب الفتاة في الاعتماد على أمها مالياً، واستفادت عملياً من معرفتها في مهنة الاختزال. وبتوصية من البروفسور أولخين عملت آنّا كاتبة اختزال عند دوستويفسكي.

تم التعارف بينهما في 6 أكتوبر 1866. وانتعشت الشابة وتحمست للعمل المتوتر المعتمد على النفس والمفعم بالجدة والإثارة. وكانت صراحة دوستويفسكي في الحديث عن حياته المشحونة بالمصائب والمنغصات قد أثارت دهشة الفتاة لطباع الكاتب الشاعرية وولدت لديها عطفاً شديداً على هذا الرجل الذي يعاني من الوحدة والآلام. وبالتدريج شغل دوستويفسكي بالها وصرفها عما عداه.

فيما بعد تحدث دوستويفسكي عن ملابسات زواجه غير المعتادة، فكتب في إحدى رسائله يقول: «في آخر الرواية - ويقصد إملاء «المقامر»- لاحظت أن مساعدتي كاتبة الاختزال تحبني بصدق مع أنها لم تفاتحني بهذا الموضوع أبداً. وصرت أنا أيضاً أعجب بها أكثر فأكثر. وطالما أنني كنت أشعر بضجر شديد وأعاني من صعوبة الحياة بعد وفاة شقيقي فقد طلبت منها أن تتزوجني. . . طلبت يدها والفارق بيننا في السن رهيب (هي في العشرين وأنا في الرابعة والأربعين)، لكنني صرت أكثر تيقناً بأنها ستكون سعيدة. فلديها فؤاد، وهي تجيد الحب».

لم يكن طلب دوستويفسكي يشكل مفاجأة بالنسبة لها. وهي في قرارة نفسها مستعدة من زمان، فوافقت على الزواج من دون

تردد. إلا أن موافقتها لم تكن مبعثاً لارتياح أقربائها ولا أقرباء دوستويفسكي. الجميع تصوروا أن هذه الزيجة مريبة تجانب الصواب وتفتقر إلى التكافؤ. بيد أن الفتاة لم تعر نصائح الأقارب والأصدقاء أذناً صاغية. ورفضت تلك النصائح «المعقولة» بكل ما كان جيل تلك الحقبة يتحلى به من جسارة وتعنُّت.

كانت الأشهر الأولى بعد حفلة الزفاف الهادئة المتواضعة أصعب فترة بالنسبة لآنّا غريغوريفنا. فلم يكن سهلاً التعود على طباع دوستويفسكي «المريضة» والمعقدة للغاية. الرجل يعاني من الصرع المزمن، فيما تعقدت العلاقات مع أقربائه. ثم إن نمط الحياة الغريب الذي يسوده الانفعال والارتباك لا يشبه بأي حال نمط الحياة العائلية الوادعة في أسرة الفتاة. كما تعرضت الزوجة لإهانات مجحفة، مع أنها طفيفة، من جانب بافل، ربيب زوجها، ذلك الشاب الأناني الذي يفتقر إلى طيبة القلب. زد على ذلك أن الزوج نفسه كان لا يزال غريباً عليها بعض الشيء. فأرهق ذلك كله الزوجة الشابة وجعلها تخشى احتمال القطيعة التي بدت آنذاك وكأنها حتمية.

كتبت آنّا دوستويفسكايا عن معاناتها وشكوكها في تلك الحقبة: «كان حبي مثالياً صرفاً نابعاً من العقل، وهو أقرب إلى الإعجاب وتأليه الرجل الذي يتحلى بمثل هذا القدر من الموهبة والخصال الروحية السامية. كان إشفاقاً شديداً على شخص عانى الكثير ولم يذق طعم الفرحة والسعادة قط... إلا أن تلك

مشاعر صافية وأحلام كان يمكن أن تتحطم على تضاريس الواقع القاسي. وبفعل الملابسات حل بالنسبة لي تدريجياً أوان الحيرة والتردد والإرتياب. ورغم شدة حبي له لم تكن كرامتي تجيز لي البقاء معه لو تأكد لي أنه لم يعد يحبني، حتى خيل إليّ أني ملزمة بأن أضحي وأتركه طالما غدت حياتنا المشتركة ثقيلة عليه أغلب الظن».

غير أن المصيبة المحتملة مرت بسلام، ولم تحصل القطيعة، وذلك بفضل ما تتحلى به آنّا دوستويفسكايا من حزم وهمّة يثيران الدهشة، رغم أنها كانت آنذاك، حسب اعترافها فيما بعد، طفلة بكل معنى الكلمة. وقد بذلت قصارى جهدها لتغيير الموقف والرحيل مع زوجها إلى الخارج بعيداً عن المشاكل العائلية اليومية وعن الحياة المشوشة والمرتبكة في بطرسبورغ.

حصل التقارب الفعلي بين الزوجين في واقع الأمر بمنأى عن بطرسبورغ، في درزدن وبادن وجنيف وفلورنسة، وتحوّل التعلق «العقلي» الواهي الذي كان، قبل الرحيل، مهدداً بالمخاطر من جميع الجهات إلى شعور عاطفي متين. وتيقنت آنّا من تعلق فيودور بها ومن حقيقة شعوره الصادق تجاهها، فتحملت بمنتهى البسالة، وبرباطة جأش قلّما نجد لها مثيلاً، كل المصائب التي لا يبخل بها المصير. وجهد دوستويفسكي ليجعل زوجته تشاطره اهتماماته ومعاناته، فالزواج في تصوره لا يقتصر على فرحة الوصال والتواجد جنب رجل عبقري، وإنما

يقتضي أيضاً تحمُّل أعباء المنزل وأداء واجب الأم والمربية و«السكرتيرة». كان دوستويفسكي ينشد رعاية خارقة في كل المجالات. كتب عامل المطبعة م. ألكساندروف الذي دأب على التردد على عائلة الكاتب يقول في مذكراته: «كانت آنّا تجيد العناية بزوجها وتحرص على صحته الواهنة بحب ونكران ذات، وتجعله على الدوام مقيداً في «إطار المشاغل» كطفل صغير، على حد تعبيرها، وتعامله بتسامح رقيق في منتهى اللياقة والأدب. ولعلي أقول واثقاً إن فيودور دوستويفسكي وعائلته، شأن الكثيرين من المعجبين به، مدينون لآنّا غريغوريفنا: فقد أفلحت في إطالة عمره، إن صح التعبير، سنوات عديدة».

في الفترة الأولى من التعارف أملى دوستويفسكي على كاتبة الاختزال الشابة آنّا سنيتكينا رواية «المقامر» التي جسَّد فيها بعضاً من جوانب سيرته الذاتية، وخصوصاً ولعه الشديد بالروليت الذي بدا وكأنه لن يتخلص منه حتى الممات. وقد تساءل دوستويفسكي متعمداً ليعرف رأي آنّا في بطل الرواية أليكسي إيفانوفيتش، فأجابته بلهجة الشباب القاطعة معربة عن استنكارها لضعف عزيمته. إلا أن الموقف الأدبي الروائي المتخيل سرعان ما تحول إلى واقع، وواجهت زوجة الكاتب الشابة من جديد ذات السؤال، ولكن الحياة نفسها هي التي طرحته هذه المرة.

كانت آنّا غريغوريفنا تتعذب بسبب المتاهة المادية وجحيم

الديون وملاحقات الدائنين. إلا أن الأمرّ والأدهى هو إدراكها لهوة الروليت السحيقة التي تمتص دوستويفسكي وتغوص به إلى الأعماق من دون رأفة.

وأخيراً تخلص الرجل من براثن القمار، وهو مدين في خلاصه بالدرجة الأولى إلى زوجته وصبرها وطيبتها وبسالتها ونبلها. كتب لها يقول: «سأظل أتذكر ذلك مدى العمر، وأعبّر عن امتناني كل مرة لك يا ملاكي. أنا الآن ملكك بلا منازع، أنا بكاملي لك وحدك، بينما كان نصفي من قبل ملكاً لتلك البدعة اللعينة».

بعد تلك الخطوة الحاسمة تمّت عملية «التواصل المتلاحم»، وصار دوستويفسكي يكرر في رسائل السنوات اللاحقة أنه يشعر بـ«اللصوق» بالأسرة ولا يطيق حتى أقصر فراق.

وبالمناسبة، فإن رسائل دوستويفسكي الكثيرة إلى زوجته آنّا تجعلنا من جهة نقتنع بمصداقية مذكراتها وصدقها الذي لا جدال فيه، ومن جهة أخرى تصور تلك الرسائل زوجة الكاتب امرأة تتحلى بطباع إنسانية خارقة ونموذجاً متميزاً متنوراً للنساء الروسيات في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. ففي الرسائل وفي المذكرات على حد سواء نجد جو المحبة الوضاء والاحترام المتبادل والرقة والحنان. دوستويفسكي يشعر بـ«الكآبة الخانقة» عندما يكون بعيداً عن زوجته: «لقد تأكد لي، يا آنّا، أنني أحبك، بل أنا متيم بك، وأنك سيدتي الوحيدة.

كل هذا على مدى 12 عاماً». (من رسائل عام 1879). كل رسائل دوستويفسكي إلى زوجته بلا استثناء مفعمة باعترافات المحبة والمودة الحرّى على امتداد أربعة عشر عاماً تقريباً من حياتهما الزوجية.

وتقوم مشاعر آنّا الحميمة تجاه زوجها على كونها بالنسبة له ليست مجرد زوجة حبيبة وامرأة جذابة. فهي شخصية إنسانية فذة تحظى بالاحترام. إنها «شخص ضروري كل الضرورة» على حد تعبير الكاتب. ويقدّر دوستويفسكي فيها «الهمة والنشاط» و«وضوح الرؤية والاكتمال» ويقول: «آنّا معاونتي المخلصة ومبعث سلواي»، ويكرر هذه الكلمات مراراً في رسائله وفي أحاديثه مع الأصدقاء. رواية الكاتب الأخيرة «الإخوة كارامازوف» مهداة إلى زوجته ومعاونته التي لا تعرف الكلل، وقد شاطرته بنكران ذات كل الأتراح والإخفاقات والهموم والمآسي وأيام الفرحة والسعادة. إن إهداء واحدة من عيون الأدب العالمي إلى آنّا دوستويفسكايا دليل على الحب الخالص والاحترام العميق من جانب المؤلف، وعلى الاعتراف بخدماتها التي لا جدال فيها للأدب الروسي. من يدري؟ ربما كانت تلك الرعاية المتواصلة والحب المتفاني الذي تكنّه زوجة الكاتب قد منحاه بالفعل عدة سنوات من العمر تمكن خلالها من كتابة تلك الرواية العبقرية الضخمة.

في أعقاب رحلة أربع سنوات إلى الخارج عادت آنّا دوستويفسكايا من هناك وقد تغيرت تماماً. فهي بعد الرحلة

ليست تلك الفتاة الساذجة العاجزة كما كانت عليه في الماضي، بل امرأة قوية الشكيمة وربة بيت محنكة لا تطيق تدخُّل الغير ونصائح الغرباء. لقد تجرعت كأس المصائب بوفاة ابنتها البكر صونيا، كما ذاقت طعم السعادة المترعة في الحياة المشتركة مع فيودور دوستويفسكي بعد أن قرّبت فاجعة وفاة الطفلة بينهما أكثر فأكثر.

تربية الأطفال والاهتمام بأسباب العيش لم يحجبا الجانب الرئيسي في حياة آنّا دوستويفسكايا، ونعني الانشغال بالنشاط الأدبي لزوجها. فهي تسجل رواياته ببالغ الانتباه والجدية ناسية النوم والاستجمام. وكانت أول مستمع أو قارئ لتلك الروايات وأول ناقد لها. وبعد الاختزال تستنسخ المخطوطات بريشتها التي لا تقل روعة عن ريشة الخطاطين، كما تراجع البروفات وتنظم شؤون خزن المطبوعات وتوزيعها.

* * *

كانت آنّا غريغوريفنا مترددة كثيراً في كتابة مذكراتها، ذلك لأنها لم ترغب في نشر رسائل دوستويفسكي إليها طالما هي على قيد الحياة. كتبت في رسالة إلى الصحفي ك. إيتينغير: «أنا لست أديبة، ثم إنني أخشى أن يتهموني بحب العظمة. وأعتقد أن رسائل دوستويفسكي لا يجوز أن تنشر قبل مماتي. أنا شخصياً لا أرغب في الشهرة. وكان من نصيبي قدر كبير من حب الناس واحترامهم لي بصفتي أرملة دوستويفسكي، مما جعلني أعزف عن الشهرة بالمرة».

المعروف أن العبقري يغادر الدنيا ويرحل تاركاً أهم ما لديه، ونعني مؤلفاته التي تجسد الحكمة والمشاعر الرقيقة وعظمة الروح. إلا أن شخصيته تبقى بالطبع سراً خفياً من بعض النواحي. ولا بد لمعاصريه وأحفاده من أن يكشفوا عن خبايا ذلك السر، كما قال دوستويفسكي نفسه عن بوشكين وأحسن فيما قال.

فمن هو دوستويفسكي على حقيقته، يا ترى؟ وما الذي انتقل من طباعه الفريدة الفذة إلى نتاجه مباشرة وانصهر في إبداعات خياله الجبار؟ وما مدى الترابط بين شخصية الكاتب وبين مأثرة الفنان؟ تلك تساؤلات لا بد أن تخطر على بال كل من يلج محراب دوستويفسكي الفني ويطلع على حياته الشخصية. وقد طرحت زوجة الكاتب، هي الأخرى، نفس تلك التساؤلات.

إلا أن أحد أهم الأسباب التي دفعت آنّا غريغوريفنا إلى ممارسة العمل الأدبي العسير وغير المعتاد بالنسبة لها، من أجل أن تعيد الحق إلى نصابه وتنصف الرجل وتتحدث عنه بحقيقته، إنما هو ظهور مذكرات لمعاصريه شوَّهت ملامحه أحياناً وجاءت مشحونة بترهات تتعارض مع الوقائع وترسم صورة لدوستويفسكي وكأنه شخصية سوداوية انفصامية مريضة تعاني من الاكتئاب والآلام. ولم تكن تلك المهمة قابلة للتنفيذ بالكامل، فهي على العموم فوق طاقة كتّاب المذكرات. قال دوستويفسكي بهذا الخصوص بصراحة قاسية: «مما يزيد في

الطين بلة أن طباعي رزينة مفعمة بالهياج والتطرف. فأنا في كل الأحوال أبلغ أقصى الحدود وأتجاوز المقبول طول عمري».

آنّا غريغوريفنا لا تتطرق إلى هذا الجانب من حياة زوجها ولا تكتب شيئاً تقريباً عن دوستويفسكي الذي «تجاوز الحدود»، فهي لا تجرؤ على الغوص في أعماق حياة الكاتب الروحية والإبداعية المعقدة للغاية. مذكراتها أصلاً لا تتناول دوستويفسكي المفكر والفنان الذي انصهرت في روحه وفؤاده ووعيه آلام وآمال وشكوك وقنوط راسكولنيكوف وإيفان كارامازوف وستافروغين والأمير ميشكين. مذكرات آنّا غريغوريفنا ما هي إلا بعض من حقيقة الكاتب، لكنّ أهم ما فيها أنها بعض من الحقيقة بالذات، من دون أي ظل للزيف والتحوير.

قالت ذات مرة للكاتب والناقد أ. إسماعيلوف: «هذه الرسائل ومذكراتي ضرورية لكي يرى الناس هذا الرجل، أخيراً، في الضوء، في الضوء الصافي. فالمذكرات المنشورة عنه غالباً ما تشوه صورته تماماً».

عكفت آنّا غريغوريفنا على كتابة مذكراتها في الأعوام 1911-1916، وبذلت فيها جهداً هائلاً. فجاءت تلك المذكرات بإسهاب كبير غير معتاد حتى بالنسبة لهذا النوع من الأدب. ويلاحظ المرء في طرح وشرح مختلف الوقائع من حياة دوستويفسكي رغبة زوجته في الدقة والموضوعية. وهذا هو السبب في استعانتها طول الوقت برسائل الكاتب ويومياته

وبرسائل ومذكرات أصدقائه وأقوال معاصريه. ومما يزيد في جاذبية حديثها كثرة الحجج المنطقية إلى جانب البساطة في السرد على السليقة. وأكثر ما كانت تحرص عليه هو تعريف القراء على الكاتب بكل ما يلازمه من خصال مستحسنة أو مستهجنة، «كما كان عليه في حياته العائلية الخاصة»، على حد تعبيرها.

في قصته «المطيعة» (نُشرت في «يوميات الكاتب» عام 1876 وتُرجمت بعنوان «العذبة» عن الفرنسية ضمن ما يسمى «المؤلفات الكاملة في 18 مجلداً»، ثم ترجمها غائب طعمة فرمان عن الروسية بعنوان «الوديعة») يوضح دوستويفسكي أسلوب السرد «الخيالي» الذي اختاره، فيقترح على القارئ أن يتخيل كاتب اختزال يسجل السيل المشوش لأفكار زوج يكاد يفقد رشده ألماً على زوجته التي دفعها إلى الانتحار. وكانت قبل ذلك وديعة طيعة، لكنها لجأت إلى العصيان بسبب عجرفة زوجها. وفي القصة دون شك مقاربة نابعة من تصورات المؤلف الشخصية. فطوال أربعة عشر عاماً عاشت مع دوستويفسكي كاتبة اختزال عائلية تسجل كل شاردة وواردة عنه، وتضيف إلى ما تراه وتسمعه تعليقات من عندها تتضمن انطباعاتها الشخصية وتقييماتها. كان دوستويفسكي يتفحص بمنتهى الفضول رموز الاختزال التي لها علاقة مباشرة به ويرغب في فكها واكتناه أسرارها. كتبت زوجته: «يومياتي تثير اهتمام زوجي لدرجة كبيرة، وقد قال لي مراراً: أنا مستعد

لأدفع الغالي والنفيس كي أعرف، يا عزيزتي، ماذا تكتبين برموزك هذه. فأنت تقرعينني فيها ولا بد. أليس كذلك؟».

فيما بعد غدت اليوميات المختزلة «السحرية» وتسجيلات الأحاديث مع دوستويفسكي أساساً لمذكرات زوجته التي كتبت في مقدمتها أن جهودها تركزت بمعظمها على «الترجمة» من لغة الاختزال إلى لغة الكلام.

* * *

فيودور ميخائيلوفيتش دوستويفسكي هو الموضوع الرئيسي في مذكرات زوجته. فهي تتحدث بالأساس عنه كربّ أسرة وزوج محب وأب حنون. «إنه الشخصية الرئيسية الوحيدة تقريباً في هذه المذكرات». أما زوجته فتأتي في المرتبة الثانية، في الظل، حيث تلعب دور كاتبة السيرة المعجبة بزوجها، ولذا تكشف للآخرين عن خصاله وطباعه. وحتى عندما تتناول الأيام الكئيبة في صيف 1868، عندما توفيت ابنتها البكر، تتحدث بمنتهى التحفظ عن مشاعر الأمومة وعن معاناتها الشخصية. تخبرنا لوبوف فيودوروفنا دوستويفسكايا عن كآبة أمها التي كثيراً ما كانت تغادر مدينة فيفَي وتمضي لزيارة مدفن الطفلة في مقبرة جنيف. فيما تكتب آنّا غريغوريفنا نفسها، أكثر ما تكتب في مذكراتها، عن آلام دوستويفسكي وعن «خوفها الشديد» عليه آنذاك. كانت واثقة «بأن طباع الإنسان لا تتجلى في أي مكان بأوضح مما في الحياة اليومية، في الأسرة». ولذا راحت تتحدث بمنتهى الإسهاب، دون أن تفوت أصغر التفاصيل، عن

خصال دوستويفسكي الأصيلة وطباعه الفريدة وعاداته وميوله ومشاربه وغرائبه ونزوعاته. إنها تتحدث عنه كـ«شخص عادي»، فتقدم وصفاً تعميمياً لحياته وأوضاعه المعيشية وساعات عمله.

ويحظى بالمرتبة الأولى من اهتمام القراء ما كتبته آنّا غريغوريفنا عن أذواق دوستويفسكي ومشاربه ومثله الجمالية العليا دون أن تتقيد بالأسماء التي يتطرق إليها في تقييماته الأدبية. ولا بد للمرء أن يلتفت إلى حديث المؤلفة عن الهزة التي إنتابت دوستويفسكي في بازل عندما شاهد لأول مرة النسخة الأصلية من لوحة «المسيح في اللحد» بريشة هانس هولبان الابن. والقارئ على علم بالأهمية الرمزية الفائقة للوحة هولبان هذه في «الأبله» والدور الذي تلعبه في فهم الفكرة الرئيسية للرواية.

في المذكرات تتعاقب مشاهد الحياة العاصفة في العاصمة بطرسبورغ، والأيام الوادعة الهادئة في أرياف ستارايا روسا، واللقطات الحية المتألقة في أوروبا الغربية عشية الحرب الفرنسية البروسية وكومونة باريس. كما تتراءى للقارئ لوحات الحياة السياسية والأعراف المرعية في ألمانيا والنمسا- المجر وسويسرا وإيطاليا. إلا أن أكثر ما يحظى بالاهتمام في القسم «الأجنبي» من المذكرات هو ولع دوستويفسكي بالفن العظيم في أوروبا العريقة ورساميها وملحنيها ومعمارييها.

ذات مرة، في زمن المصاعب والمصائب، كتب دوستويفسكي في إحدى رسائله إلى زوجته عام 1867:

«أنت، يا آنّا، ترينني عادة متجهماً عبوساً متقلب الأطوار. لكن ذلك هو مظهري، أنا بهذه الصورة دوماً، إنسان قهرته الأقدار وأفسدته، لكن مخبري يختلف، صدقيني».

آنّا غريغوريفنا تحب وتقدر في زوجها خصوصاً «مخبره الحقيقي الذي يختلف عن مظهره». تحسست ذلك وعرفته منذ اللقاءات الأولى، وهذه «المعرفة» المقتصرة عليها وحدها هي بيت القصيد في المذكرات.

ونحن هنا نرى دوستويفسكي، في أحلك أيام البؤس، إنساناً حافظ على أناقته ولم يفارقه شعوره بالكرامة الشخصية. دوستويفسكي مرهف في تقييم الأشياء الجميلة، يتلذذ لأدنى فرصة تمكنه من إثارة الفرحة في أفئدة الأقرباء. أمامنا إنسان ذو مصير مفعم بالتقلبات الفاجعة، إنسان وقف أكثر من مرة على شفا الهاوية، لكن حبه لفرحة الحياة وأعيادها في ازدياد. ها نحن نراه، هو رب الأسرة، يفرح بكل جوانحه ويمرح كالطفل حول شجرة الميلاد ويرقص الفالس حتى النسيان. فيما نراه نفسه يقضي بقية الليل ساهراً جنب ابنه الصغير الذي توعك بعد أن انطفأت شموع الشجرة من زمان...

وعندما نقرأ ما جاء في المذكرات بهذا الخصوص يحضرنا ما كتبه دوستويفسكي بالذات لمراسليه عن الأطفال: «إنني أدرسهم، وقد دأبت طول عمري على دراستهم، وأنا أحبهم حباً جماً... فما أعمق النزعة الإنسانية التي يضفونها على الوجود بأسمى معانيه... لا قيمة للحياة من دونهم».

ما كتبته آنّا غريغوريفنا عن حب زوجها لأطفاله يمثل «شروحاً» بالغة القيمة للعديد من مؤلفاته التي نجد فيها على الدوام حضوراً لبطل صغير يصوره الكاتب بمنتهى الإشفاق والألم والأمل.

* * *

ظلت آنّا دوستويفسكايا أمداً طويلاً عاجزة عن الإقرار بواقع وفاة الكاتب. وقد رتب لها أصدقاء العائلة وأقاربها رحلة مع طفليها إلى القرم على أمل أن تخف أحزانها بسبب تبدل المكان وتلبية لرغبتها في الوحدة والاعتزال. إلا أن الذكريات لم تفارقها هناك أيضاً، بل أطبقت عليها وملأت فؤادها باليأس والقنوط. كتبت إلى أوفيركييفا في 22 يوليو 1881 تقول: «الأحوال ظاهرياً جيدة وهادئة لحد يفوق الوصف، ولا يسع المرء إلا أن يفرح لها لو لم تأخذ الكآبة بخناقي. إنني حزينة إلى حد اليأس المطبق أحياناً. أتذكر سنوات السعادة الفائتة ولا أصدق بأنها لن تعود. لا أستطيع الاعتراف بأنني لن أراه ولن أسمعه بعد الآن. كنت آمل أن تسعفني الوحدة التامة هنا، كنت واثقة بأنها ستسعفني، ولكن حصل العكس، فالوحدة لم تنجدني، بل أفسحت المجال رحباً لذكريات أشد حزناً ولوعة، ولمزيد من الأسف والقنوط. ولا أدري ماذا أفعل لنفسي!»

في يوم تشييع جثمان دوستويفسكي وعدت أرملته بأن تكرس «البقية الباقية» من حياتها لترويج مؤلفاته، فيما ظلت

تعيش على ذكريات الماضي: «أنا لا أعيش في القرن العشرين، بل بقيت في سبعينات القرن التاسع عشر. رفاقي هم أصدقاء فيودور ميخائيلوفيتش، ومجتمعي هو طائفة الراحلين المقربين إليه. إنني أعيش معهم. وكل من يعكف على دراسة سيرة دوستويفسكي أو مؤلفاته عزيز علي». يقول الكاتب والناقد سلونيمسكي الذي يعرف آنّا غريغوريفنا تمام المعرفة: إنها تقدّر شخصيتها بقدر ما تعكس شخصية زوجها، فهي «زوجة دوستويفسكي» لا أكثر ولا أقل.

لقد بذلت الزوجة الوفية بعد وفاة الكاتب جهداً كبيراً متعدد الجوانب. أصدرت مؤلفاته سبع مرات، آخر طبعة في عام 1906. وقدمت خدمات جلى إلى ميلر وستراخوف اللذين أعدا أول مادة لكتابة سيرة دوستويفسكي. وفي عام 1906 ذاته صدر دليل فريد أعدَّته آنّا غريغوريفنا للمؤلفات والنتاجات الفنية المتعلقة بحياة دوستويفسكي ونشاطه. كما عكفت طوال تلك الفترة على شرح يوميات زوجها والتحضير لنشر رسائله إليها في كتاب مستقل، بالإضافة إلى تأليف المذكرات التي نحن بصددها. وإلى جانب هذه الأعمال الأدبية الضخمة أسست آنّا غريغوريفنا في ضاحية ستارايا روسا مدرسة للحِرَف الشعبية وبضمنها «متحف دوستويفسكي المنزلي». كما رتبت في المتحف التاريخي بموسكو غرفة خاصة بدوستويفسكي غدت فيما بعد أساساً لمتحف الكاتب في العاصمة.

وساهمت دوستويفسكايا في الأمسيات الأدبية والمعارض،

وزاولت مكاتبات واسعة مع عدد غفير من المعجبين بأدب دوستويفسكي.

إلا أن المنية عاجلتها، فحالت دون إنجاز الكثير مما كانت تريد إنجازه. توقف العمل في إعداد المجلد الثاني من سيرة دوستويفسكي، وظل قسم من دفاتر التسجيلات المختزلة للأحاديث مع الكاتب دون أن تفك رموزها. وكانت آنّا غريغوريفنا قد تشكت في حديث مع إسماعيلوف قائلة: «يؤسفني أنني لم أتمكن في عملي المتواصل المكرس من جديد لقضية زوجي أن أتفرغ لتلك التسجيلات. ثم إن فك رموزها ليس بالأمر اليسير. فقد إستخدمت، شأن أية كاتبة اختزال محترفة، رموزاً واختصارات لا يعرفها أحد غيري...» ولم تكن المذكرات قد أنجزت هي الأخرى. قالت آنّا دوستويفسكايا في حديث مع ل. غروسمان قبل فترة قصيرة من وفاتها: «أنا في الثانية والسبعين، ولست راغبة في الموت بعد. أحياناً آمل أن أعيش كالمرحومة والدتي إلى حد التسعين. فأمامي عمل كثير، ولم أنجز بعد كل مهماتي وقضية عمري».

في صيف 1917 أصيبت آنّا دوستويفسكايا بالملاريا وهي في الجنوب. اشتدت بها الحمى ولم تتمكن من العودة إلى بتروغراد (بطرسبورغ)، وكانت صحتها متردية تماماً بسبب المرض والحرمان. فتحملت الآلام ببسالة خارقة.

كتبت الطبيبة كوفريغينا عنها فيما بعد: «في تلك الآونة، في الشهور الأخيرة من حياتها، أدهشتني عموماً بخصالها الروحية

الفريدة، وأثارت العجب الشديد بصورة تلقائية، وليس بوصفها زوجة دوستويفسكي، من حيث همتها التي لا تكل وذهنها الرهيف وسعة اطلاعها واهتمامها المتواصل بكل ما يحيط بها. كانت تضفي على كل شيء حواليها حماسة وهمة يفتقر إليهما من هم في سنها. وأحياناً لا يصدق المرء أن أمامه امرأة عجوزاً...»

توفيت آنّا غريغوريفنا دوستويفسكايا في التاسع من يونيو 1918 بمدينة يالطا ودفنت هناك في مقبرة آوتسكويه بعيداً عن بطرسبورغ وعن الأهل وعن مدفن دوستويفسكي. وكانت قد كتبت في وصيتها أن تُدفن جنب زوجها في دير ألكسندر نيفسكي من دون نصب شاهد مستقل، ما عدا بضع كلمات بسيطة. وبسبب الملابسات لم تنفذ وصيتها إلا في عام 1968، بمناسبة مرور 50 عاماً على وفاتها. وتم نقل رفاتها بفضل جهود ومثابرة حفيدها أندريه الذي حافظ، مثل جدته، على وفائه الصادق لذكرى دوستويفسكي.

لقد احتفظ التاريخ بالكثير من عبارات الثناء وكلمات المحبة والوفاء التي قالها معاصرو آنّا غريغوريفنا عنها. وأشادوا بما تتحلى به هذه المرأة الرقيقة الضعيفة بدنياً والمثقلة بالهموم من شهامة وعزة نفس وشعور بالكرامة الشخصية جعلتها إنساناً قوي العزيمة يتمتع بأكبر قدر من اللياقة والأدب ورباطة الجأش، بل وحتى الاستقلالية التي قدَّرها دوستويفسكي في زوجته رفيع التقدير.

كان في رسائله إلى الأصدقاء قد لفت الأنظار مراراً إلى الفارق في طباعه وطباعها، إلا أن هذا الفارق في الطباع تحول إلى وحدة الأضداد التي قلّما نرى لها مثيلاً من حيث تهيئة مستلزمات الوئام في الأسرة. كتبت آنّا غريغوريفنا في الصفحات الأخيرة من مذكراتها: «بالفعل، أنا وزوجي كائنان مختلفان تماماً من حيث البنية والطباع والآراء، وقد بقينا محافظين على هويتينا دون أن نحاكي بعضنا بعضاً ودون أن نتشابك أو نتقاطع نفسياً في الباطن. فلم أتدخل في محراب روحه ولم يتدخل في محرابي، ولذا كان كل منا يشعر بالحرية في هذا المضمار. يبدو أن فيودور ميخائيلوفيتش الذي كان يمعن النظر لوحده ويطيل التفكير في أعمق قضايا الروح البشرية توصل إلى قناعة بعدم تدخلي في حياته الروحية والذهنية، ولذا كان يقول لي أحياناً: «أنت الوحيدة التي فهمتني من بين جميع النساء»».

ولكن هل يعقل أن تكون آنّا غريغوريفنا على مسافة من زوجها أو على طرفي نقيض معه إلى هذا الحد؟ كان في أحاسيسهما بالطبع شيء مشترك قرّب بينهما. قالت ستويونينا، عن صديقتها الحميمة آنّا دوستويفسكايا: «في نفسها كثير من المآسي، الأمر الذي يلاحظ عليها حتى في أبسط لحظات الحياة اليومية. . .»

في ملامح آنّا غريغوريفنا نأمات ومؤشرات خفية جعلت معاصري دوستويفسكي يستحضرون صورته بتأثير من تلك

المؤشرات. وعندما قابلها ليف تولستوي لأول مرة رأى أنها تشبه زوجها إلى حدّ يثير الدهشة. ولعل ما قاله تولستوي بهذا الخصوص مجاملة رقيقة متعمدة تدل على الإحترام الذي يقيم له أبناء الطبقة الراقية وزناً كبيراً. وذلك أمر تفهمه آنّا دوستويفسكايا تمام الفهم. ولكنْ لا يستبعد أن يتراءى لتولستوي في لحظة ما شبه بينها وبين زوجها. قال لها الروائي العبقري مودعاً: «العديد من الكتّاب الروس كانوا سيشعرون بارتياح كبير لو كانت زوجاتهم كزوجة دوستويفسكي».

سرغي بيلوف
فلاديمير تونيمانوف
باحثان في أدب دوستويفسكي



آنا غريغوريفنا دوستويفسكايا في السبعين

تقول آنّا غريغوريفنا:

لم أفكر يوماً في كتابة المذكرات، فأنا أفتقر إلى الموهبة الأدبية. وكنت عمري مشغولة بإصدار مؤلفات الراحل زوجي، فلا وقت عندي لأمور أخرى. إلا أن صحتي تدهورت في عام 1910، فعهدت إلى آخرين بمتابعة طبع مؤلفاته، وانزويت بعيداً عن العاصمة بطرسبورغ أعيش في وحدة مطبقة. وكان لا بد أن أملأ فراغ أوقاتي، وإلا فلن يطول بي العمر.

أعدت قراءة يوميات زوجي ويومياتي، فوجدت فيها تفاصيل هامة تستحق أن يطلع عليها الناس. ثم أمضيت خمس سنوات 1911-1916 في إعداد هذه المذكرات (المخطوطة الروسية في 792 صفحة من القطع الكبير).

أنا لا أتعهد للقارئ أن يجد متعة في مذكراتي، لكني أؤكد على صدقيتها ووثائقيتها. وأعترف صراحة بأنها تعاني من هنات أدبية كثيرة، كالإسهاب وحوشي الكلام وعدم تناسق الفصول. وعذري في صعوبة ما أقدمت عليه، وأنا في السبعين، تحدوني رغبة صادقة في تزويد القراء بصورة واقعية عن فيودور ميخائيلوفيتش دوستويفسكي، ما له وما عليه، كما كان في حياته العائلية والشخصية (في أكثر مراحل إبداعه خصباً وعطاءً 1866-1881).

1. نظرة كلها ألغاز

لكنيسة القديس ألكسندر نيفسكي في بطرسبورغ منزلة خاصة في نفسي. إذ إن مقبرتها تحنو على رفات المرحوم زوجي فيودور دوستويفسكي، وإذا جاء أجلي فعسى أن أدفن جنبه.

ثم إني ولدت (في الثلاثين من أغسطس 1846) في عيد القديس نيفسكي بشقتنا الفخمة (11 حجرة) المطلة على ساحة كنيسته. كان المنزل يعج بالضيوف يتفرجون مبتهجين، من الطابق الثاني، على موكب الصلبان ومراسم العيد في الساحة. وكانت أمي الجميلة للغاية، كما علمت بعد سنين، تقوم على خدمتهم فرحة مستبشرة. وفجأة جاءها المخاض. وبعد ساعة رأيت النور. استقبل الضيوف نبأ ميلادي بالتهليل وقرع الكؤوس، وتنبأوا لي بمستقبل باهر سعيد.

فالقليلون من البشر يولدون في مناسبات سارة كهذه. وبالفعل، ورغم الصعاب والآلام التي عانيتها فيما بعد، أعتبر نفسي سعيدة للغاية، ولا أرى حياة أفضل مما عشت.

أمضيت طفولتي مع أخي وأختي في حياة هادئة متمتّعين بحنان أمنا السويدية الأصل وأبينا الروسي (الأوكراني المنشأ).

وأنهيت الدراسة الابتدائية في مدرسة كل دروسها، ما عدا الدين، تُلقى بالألمانية، وأفادتني هذه اللغة كثيراً حينما أمضيت مع زوجي عدة سنين في الخارج. التحقت بمعهد التربية لكني لم أكمل الدراسة فيه. وفي عام 1866 دخلت دورة الاختزال بإصرار من والدي الذي ربما كان عرافاً يقرأ الغيب ويدري أني سألقى سعادتي بفضل هذه المهنة. فقد أبلغني أستاذي في الدورة أن الكاتب دوستويفسكي يبحث عن شخص يجيد الاختزال ليملي عليه روايته الجديدة «المقامر» بحوالي مئتي صفحة وبأجر قدره خمسون روبلاً. ورشحني الأستاذ لهذه المهمة. خفق قلبي فرحاً. كنت، شأن جميع فتيات الستينات، أنشد الاستقلال وأبحث عن عمل يجعلني أعتمد على نفسي، لاسيما وأن تلك فرصة نادرة للتعرف على كاتب من أحب الكتّاب إلى والدي، وأنا شخصياً معجبة به للغاية، وكنت أبكي عندما أقرأ روايته «مذكرات من بيت الأموات».

تصورته شيخاً بعمر والدي، عبوساً كئيباً كما يتصوره الكثيرون، وجئت إليه في الموعد المحدد. كان يقيم في شقة متواضعة بعمارة ضخمة يسكنها تجار وباعة وحرفيون. وذكّرتني في الحال بالعمارة التي يقيم فيها راسكولنكوف بطل «الجريمة والعقاب». مكتبه واسع بنافذتين مضيئتين أيام الصحو، لكن جوه فيما عدا ذلك حالك ساكن يثقل على النفس. وعندما رأيته لأول مرة خيّل إليّ أنه عجوز بالفعل، ولكن ما إن تحدّث معي حتى تضاءلت سنه وبدا لي في الخامسة والثلاثين. كان متوسط

البنية معتدل القامة، شعره كستنائي فاتح أقرب إلى الأشقر، مدهون ومصفوف بأناقة. وجهه شاحب كوجوه المرضى. يرتدي سترة من الجوخ الأزرق تكاد تكون بالية، إلا أن قميصه ناصع البياض بياقة منشاة وردنين بارزين. ولكنّ ما أدهشني فيه هو عيناه، لاختلافهما الواضح. إحداهما بنّية، وفي الأخرى بؤبؤ متسع يحتل فضاء العين ويأتي على معظم القزحية، مما يجعل نظراته لغزاً من الألغاز. (في نوبة مبكرة من الصرع سقط دوستويفسكي وأدمى عينه اليمنى فوصف له الطبيب علاجاً بالأتروبين أدى الإفراط في استعماله إلى توسع البؤبؤ لهذا الحد).



2. عودة الروح

في أول لقاء عمل معه حدثني، وهو يدخن السيجارة تلو السيجارة، عن حكم الإعدام الذي صدر بحقه مع جماعة بتراشيفسكي بتهمة التآمر على النظام في 22 ديسمبر 1849:

- كنت واقفاً في الساحة أراقب بفزع ترتيبات الإعدام الذي كان سينفذ بعد خمس دقائق. كنا في قمصان الموت أو الأكفان موزعين على وجبات من ثلاثة محكومين.

وكنت الثامن في التعداد، ضمن الوجبة الثالثة. أوثقوا الثلاثة إلى الأعمدة. وبعد دقيقتين يطلق الرصاص على الوجبتين الأوليين ويأتي دوري.

يا إلهي، ما أشد رغبتي في الحياة. تذكرت كل ماضيّ الذي هدرته وأسأت استخدامه، فرغبت في الحياة من جديد وفي تحقيق الكثير مما كنت أنوي تحقيقه لأعيش عمراً طويلاً . . . وفي اللحظة الأخيرة أعلن وقف التنفيذ. حلوا وثاق رفاقي وقرأوا حكماً جديداً على كل منا. وكانت من نصيبي هذه المرة الأشغال الشاقة أربع سنين. فما أعظم سعادتي. أمضيت

باقي الأيام قبيل التسفير إلى المنفى أغنّي وأترنم في الثكنة كل يوم. ما أشد فرحتي بحياة وُهبت لي من جديد. . .

اقشعرّ بدني من حديثه. وأدهشني بصراحته. فهذا الرجل الذي تبدو عليه مظاهر الانطوائية القاتمة يتحدث عن تفاصيل حياته بصدق وإخلاص مع فتاة غريرة يراها لأول مرة. ولم تتبدد حيرتي من هذا التناقض إلا بعد أن اطلعت على أوضاعه العائلية وأدركت سبب بحثه عن أناس يضع ثقته فيهم ويفضي إليهم بما يعتمل في نفسه. كان يشعر بوحدة قاتلة بعد وفاة زوجته الأولى ماريا عيسايفا وشقيقه الأكبر ميخائيل ويعيش محاصراً من قبل الخصوم والحساد والدائنين.

كانت انطباعات اليوم الأول مرهقة للغاية. عدت إلى منزلي في ساعة متأخرة من الليل وأنا في أقصى درجات الإعياء بعد أن أملى عليَّ فيودور دوستويفسكي أولى صفحات «المقامر». ولأول مرة في حياتي أرى إنساناً ذكياً وطيب القلب إلى هذا الحد، لكنه تعيس بنفس القدر وكأن الجميع أشاحوا بوجوههم عنه. فتألمت وشعرت بالإشفاق عليه.

3. الناشر الماكر

تأخرت عليه قليلاً في اليوم التالي. فوجدته قلقاً للغاية. قال لي إنه ملزم بإنهاء الرواية في غضون شهر، فإن دائني مجلة «الوقت» التي كان يصدرها شقيقه ميخائيل وتعهَّد هو بتسديد ديونها بعد وفاته يهددونه بمصادرة ممتلكاته وزجّه في السجن. الديون المستحقة حسب الكمبيالات ثلاثة آلاف روبل.

وبهذا المبلغ باع دوستويفسكي إلى ناشر اسمه ستيلوفسكي حقوق طبع مؤلفاته بثلاثة مجلدات والتزم فضلاً عن ذلك بتأليف رواية جديدة يدخل ريعها ضمن المبلغ المذكور. وكان ستيلوفسكي أقدم على خطوة غادرة، حيث اشترى قبل ذلك بأبخس الأثمان كمبيالات ديون ميخائيل. فعاد إليه المبلغ الذي دفعه إلى دوستويفسكي. وها هو، فوق ذلك، يشترط تسليم الرواية الجديدة في مدة غير معقولة، وإلا ستعود إليه، حسب العقد الموقع مع الكاتب، حقوق نشر مؤلفاته لأجل غير مسمى. وكان يأمل بالطبع أن يعجز دوستويفسكي المريض عن الإيفاء بتعهده، لاسيما وأنه كان في عام 1866 ذاته على وشك إنهاء «الجريمة والعقاب».

صرت أتردد عليه يومياً في الثانية عشرة، فيملي عليَّ فصول «المقامر» حتى الرابعة، على ثلاث وجبات بنصف ساعة أو أكثر. وفيما بين ذلك نتحدث في شتى الأمور. وبالتدريج تحسن مزاجه وتعوَّد على الإملاء، فهو يمارسه لأول مرة. وكان يسرُّه بخاصة الرد على تساؤلاتي عن الأدباء الروس. فهو، مثلاً، يعتبر نيكولاي نكراسوف صديق الطفولة ويقدر موهبته الشعرية كثيراً. كما يقدر أبولون مايكوف كشاعر موهوب وإنسان ذكي ومثال للطيبة. ويرى أن إيفان تورغينيف روائي من الدرجة الأولى، لكنه يأسف لأن هذا الأخير أمضى وقتاً طويلاً في الخارج ولم يعد يتفهم طبيعة روسيا وطباع الروس كما ينبغي لكاتب كبير مثله (كانت العلاقة بين دوستويفسكي وتورغينيف معقدة يغلب عليها الجفاء والقطيعة).

4. القدس أم المرأة؟

وعلى ذكر الخارج أبلغني ذات مرة، وكان في حالة من اليأس والقنوط، أنه مقدم على اختيار أحد طرق ثلاثة، فإما الرحيل إلى القدس ليقيم مع الطائفة الأرثوذكسية الروسية هناك ربما لآخر العمر، وإما الهجرة إلى أوروبا ليغرق في القمار الذي أولع به، وإما الزواج للمرة الثانية لعله يجد السعادة والفرحة في أحضان العائلة. وكانت كفة القدس هي الراجحة من حيث جدية نوايا دوستويفسكي، فقد عثرت بين أوراقه فيما بعد على رسالة مؤرخة في3/ 6/ 1863 من رئيس اتحاد الأدباء الروس آنذاك إلى القنصل الروسي في القسطنطينية لتسهيل أمر رحيله.

وسألني رأيي في هذا الخيار الذي كان سيغير مجرى حياته الفاشلة تغييراً جذرياً. تحيرت في الجواب. بدت لي نيّته في الرحيل إلى القدس العثمانية أو الى كازينوهات أوروبا غامضة وخيالية. ولعلمي بوجود عوائل سعيدة بين معارفي وأقربائي (في روسيا) نصحته أن يبحث عن أمنيته المنشودة في الأسرة. فعلّق قائلاً:

- وهل تتصورين أن امرأة ستقبلني زوجاً؟ وأية امرأة أختار؟ راجحة العقل أم طيبة القلب؟

- راجحة العقل طبعاً، كي تناسبك.

- كلا، أفضّل امرأة طيبة القلب تشفق عليَّ وتحبني.



5. رواية في 26 يوماً

واصلنا العمل في «المقامر» حتى غدا واضحاً في آخر الأسبوع الثالث أننا سنتمكن من تسليم الرواية في الموعد. وصرنا كلانا نشاطر أبطالها حياتهم.

فكان لي بينهم، كما لدوستويفسكي، شخوص أحبهم وآخرون أنفر منهم. أشفقت على الجدة التي خسرت أموالها وعلى مستر أستلي، لكني امتعضت من بولينا ألكسندروفنا ومن البطل الرئيسي أليكسي إيفانوفيتش، فيما التزم دوستويفسكي جانب هذا الأخير وأكد أنه شخصياً جرب الكثير من مشاعر البطل وانطباعاته.

أنجز دوستويفسكي روايته في 26 يوماً وسلمها إلى الشرطة، مقابل إيصال، ليتفادى غدر الناشر الماكر. وقبضت أجرتي، لكن علاقتي بالكاتب لم تنقطع.

فقد أبدى رغبة في زيارة عائلتي. ودعوته إلى بيتي بعد أيام. أعجبت به أمي كل الإعجاب بعد أن كانت في البداية متهيبة مرتبكة لزيارة الكاتب «الشهير». وهو، والحق يقال،

جذاب للغاية يسحر، كما لاحظت فيما بعد، حتى خصومه الذين لا يرتاحون إليه عادة.

عرض عليَّ أن نواصل العمل في الجزء الأخير من «الجريمة والعقاب» هذه المرة. وكنت مترددة بعض الشيء، لكني وافقت عندما رأيته مصراً.



6. الجوهرة والأحلام

بعد ثلاثة أيام زارنا من جديد من دون سابق إنذار. وطلب أن آتي إليه لتدقيق شروط العمل.

ولكني حينما جئته، في الثامن من نوفمبر 1866، فوجئت به يصارحني بحبه ويرجوني أن أقبل به زوجاً.

. . . كان منفعلا ومبتهجاً حتى بدا لي في سن الشباب. سألته عن سبب ابتهاجه فأجاب أنه رأى حلماً في المنام. فقهقهت، لكنه أوقفني قائلاً: «لا تسخري منى. أنا أؤمن بالأحلام. وأحلامي تتحقق دوماً. حينما أرى المرحوم شقيقي ميخائيل أو يحضرني طيف والدي في المنام لا بد أن تحل بي مصيبة. لكني هذه المرة رأيت جوهرة براقة بين مخطوطاتي في هذا الصندوق، ثم توالت أحلام أخرى ولا أدري أين اختفت الجوهرة». فقلت له: «الأحلام تفسر عادة بالمقلوب»، وأسفت لما قلت. فقد امتقع وجهه وسأل: «تعتقدين أنني لن ألقى السعادة وأن ذلك مجرد أمل واهٍ؟». وأجبته: «واللّه لا أدري. ثم إننى لا أصدق الأحلام». واختفى كل أثر للابتهاج. دهشت لسرعة تبدل مزاجه. ثم انتقل بالحديث إلى رواية يخطط

لكتابتها، فتحسن حاله رأساً وأخبرني أنه لم يتوصل بعد إلى خاتمة جيدة. ففي الرواية فتاة، وهو غير ملم بارتعاشات نفوس الفتيات. ورجاني أن أساعده. عرض عليَّ بالخطوط العامة حبكة الرواية، فأدركت أنه يقص عليَّ مشاهد من حياته تلقي الأضواء على طفولته القاسية وعلاقته بالمرحومة زوجته وأقربائه والملابسات الأليمة التي شغلت الفنان عن عمله المحبب عدة سنين. وكان المفروض أن تنتهي الرواية بعودة الفنان إلى الحياة من خلال حب يشفيه وينقذه من وحدته وشيخوخته المبكرة. ولم يخطر ببالي ساعتها أنني كنت المقصودة ببطلة الرواية المزعومة. لكنه باغتني مرتبكاً:

- ما رأيك؟ هل تستطيع فتاة شابة أن تحب فناناً عجوزاً مريضاً مثقلاً بالديون؟.. لنفترض أن الفنان هو أنا، والبطلة أنت، فما رأيك؟

- لو كان الأمر كذلك فعلاً لأجبتك: أحبك وسأظل على حبي مدى العمر.

وبعد ساعة أخذ فيودور دوستويفسكي يخطط لمستقبلنا ويسألني رأيي في التفاصيل. وكنت عاجزة عن الخوض فيها من فرط السعادة. اتفقنا على كتمان سر الخطوبة مؤقتاً إلى أن تنجلي الملابسات. وعندما ودّعني هتف مبتهجاً: وجدتها! وجدت الجوهرة أخيراً. وأجبته: عسى ألا تكون حجراً.

7. لم يعد السر سراً

لا أظن أن أمي فرحت لنبأ خطوبتي. فهي تدرك بالطبع أني سأعاني الكثير فيما لو تزوجت من رجل مصاب بداء عضال ويفتقر إلى المال. لكنها لم تعمد إلى إقناعي بالعدول عن الزواج، كما فعل آخرون بعدها. وللحقيقة أقول إن دوستويفسكي أبدى طوال 14 عاماً من حياتنا الزوجية منتهى الطيبة في معاملة والدتي.

وبعد أسبوع افتضح سر الخطوبة على غير المتوقع. أفضى به دوستويفسكي نفسه إلى حوذيه في لحظة ابتهاج. فأبلغ هذا الأخير خادمة نقلت الخبر في الحال إلى بافل، ابن دوستويفسكي المتبنى. غضب هذا على «أبيه العجوز»، فكيف يجوز له أن يبدأ الحياة من جديد دون أن يستشير «ابنه؟». وانسحب غضب الفتى عليَّ طبعاً، إلا أن موقفه مني غدا أكثر ليونة بمرور الزمن.

رغبت في معرفة كل شيء عن دوستويفسكي. وما كانت أسئلتي المتلاحقة لتضايقه.

حدثني عن حبه لأمه وأخيه المرحوم ميخائيل وأخته الكبرى

فاريا، لكنه لم يُبدِ حماساً في الكلام عن إخوته وأخواته الأصغر. واستغربت من غياب كل ما يشير الى غرامه بامرأة ما في شبابه. وأعتقد أن السبب هو تفرغه المبكر للكتابة. فالنشاط الثقافي أزاح حياته الشخصية إلى المرتبة الثانية، ثم إنه تورط في عمل سياسي دفع ثمنه غالياً وصرفه عن الاهتمام بأموره الخاصة.

لم يكن يميل إلى تذكُّر المرحومة زوجته، لكنه يذكر خطيبته الأولى آنّا كورفين بكل خير، ويأسف على فسخ خطوبتهما لاختلاف الطباع والآراء - كما يقول. وظل حتى النهاية يحتفظ بعلاقات طيبة معها. تعرفت عليها أنا أيضاً بعد ست سنوات من زواجي، فربطت بيننا أواصر صداقة.

8. فارق السن ربع قرن

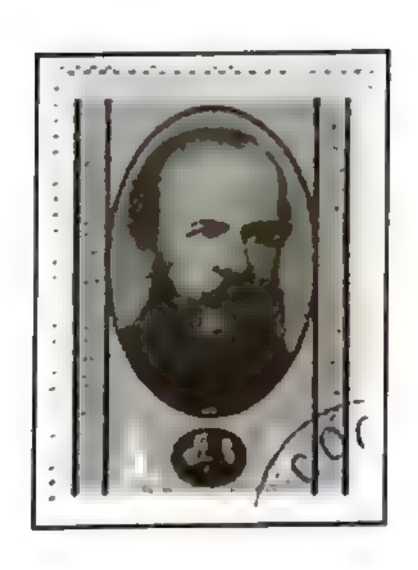
سألته مرة: لمَ لمْ تتقدم إليَّ بخطوبة عادية كما يفعل الجميع، وجئت بمقدمات طويلة عريضة بشكل «رواية» مختلقة؟ فأجاب:

- الحقيقة كنت يائساً، وكنت أعتبر الزواج منك تهوراً وجنوناً. فالتفاوت بيننا رهيب. أنا شيخ عجوز تقريباً وأنت في عمر الطفولة وفارق السن بيننا ربع قرن. أنا مريض كئيب سريع الانفعال، وأنت مفعمة بالحيوية والمرح. أنا إنسان مستهلك أكلت عمري وتجرعت المصائب والأهوال. وأنت تعيشين حياة هانئة والمستقبل كله أمامك. ثم إني فقير ومكبل بالديون. فماذا أنتظر؟

- إنك تبالغ يا عزيزى. فالتفاوت بيننا ليس فيما تقول. التفاوت الحقيقي أنك اخترت فتاة متخلفة لن تقترب شبراً من مستواك الثقافي في يوم من الأيام.

- كنت متردداً متهيباً في الخطوبة. أخشى ما أخشاه أن أغدو مثاراً للسخرية فيما لو رفضت. فكيف يحق لرجل كهل قبيح مثلي أن يطلب يد فتاة شابة مثلك؟ كنت أتوقع أن تردّي

عليَّ بأنك تحبين شخصاً اخر. ولو جاء جوابك على هذا النحو لكان ضربة قاسية لي، فأنا أعاني من وحدة نفسانية خانقة وكنت أريد أن أحتفظ بصداقتك على الأقل. ولذا أردت أن أستطلع رأيك في البداية، من خلال مخطط رواية وهمية. كان أسهل عليَّ عندئذ أن أتحمل رفضك. إذ سيكون موجهاً ضد بطل الرواية وليس ضدي شخصياً. على أية حال أرى أن تلك الرواية المختلقة أفضل رواياتي على الإطلاق. فقد عادت عليَّ بالثمار رأساً.



9. داء بلا دواء

تلقّى دوستويفسكي رسالة من مجلة « البشير الروسي» الصادرة في موسكو تطالبه بالجزء الثالث من «الجريمة والعقاب». وكنا نسينا هذه الرواية فيما نحن فيه من أفراح. فعاد دوستويفسكي يملي عليَّ بقية الرواية بهمة ونشاط. تحسن مزاجه، فتحسنت صحته، حتى أن الشهور الثلاثة التي سبقت زفافنا لم تشهد سوى ثلاث أو أربع نوبات من الصرع، مما جعلني آمل بأن هذا الداء اللعين سيخف فيما لو توافرت لزوجي حياة هادئة سعيدة. وهذا ما حدث بالفعل.

فالنوبات التي كانت تنتابه كل أسبوع تقريباً لم تعد تتكرر في السنوات التالية إلا لماماً. ولم يكن الشفاء من هذا المرض بالأمر الممكن، لا سيما وأن دوستويفسكي تهاون في العلاج، بل وأهمله لاقتناعه بعدم جدواه. إلا أن تقلص النوبات كان بالنسبة إلينا هبة عظيمة خلصته من الرواسب النفسانية الثقيلة بعد كل نوبة، وخلصتني من الدموع والآلام التي تكويني عندما يقع فريسة للصرع بحضوري. كانت نياط قلبي تتمزق وأنا أسمعه يزعق بصوت لا يشبه أصوات البشر، ثم أراه يتلوى ويخر على

الأرض متشنجاً. وعندما ألفيته لأول مرة يتضور ألماً ويصرخ ويئن ساعات بلسان متلعثم ووجه ملتو وعينين جامدتين ظننته مجنوناً مختل العقل. لكنه، والحمد للّه، كان يغفو طويلاً ويستيقظ بعد ذلك سوياً كالآخرين، لولا الكآبة التي تظل تلازمه أكثر من أسبوع وكأنه فقد أعز ما لديه في الدنيا، على حد تعبيره.



10. أول احتكاك عائلي

جاءني ذات يوم، في عز الشتاء، يرتجف من البرد بمعطف خريفي، فأسرعت إليه بالشاي الساخن وسألته مستغربة: أين معطف الفرو؟ فأجابني متردداً:

قيل لي إن الجو دافئ. ثم أضاف موضحاً أن أقرب أقربائه، ربيبه بافل وأخاه الأصغر نيكولاي وكذلك إميليا زوجة المرحوم ميخائيل، طلبوا منه نقوداً لحاجة ماسّة وعاجلة. فاضطر أن يرهن معطفه الفرائي. ثارت ثائرتي ورحت أبكي وأزعق: كيف يقول أقرباؤك القساة إن الجو دافئ؟

بافل لا يتناول قهوة الصباح من دون قشدة. وقبيل الظهر يأكل طيراً مشوياً، فتقدم لنا الخادمة على الغداء الطيرين (الصغيرين) المتبقيين، فلا يكفياننا نحن الثلاثة. ويختفي الثقاب أحياناً مع أن علباً عديدة منه كانت في البيت أمس. وكذا يحدث لأقلام الرصاص المبرية. وتثور ثائرة دوستويفسكي عندما يريد التدخين، فيصرخ في وجه فيدوسيا.

ويهز بافل كتفيه: «انظر يا بابا، لم تحدث أشياء كهذه عندما كنا وحدنا».

والخادمة المسكينة تخشى غضب دوستويفسكي حتى الموت، والأصح أنها تخشى أن تصيبه نوبة مفزعة بسبب ذلك، كما حدث له مراراً بحضورها.

كانت متزوجة من موظف سكير توفي وتركها وأطفالها الثلاثة في فقر مدقع. بلغ خبرها مسامع دوستويفسكي فأخذها خادمة مع صغارها. وحدثتني، والدموع تترقرق في عينيها، عن طيبته البالغة وكيف كان يدخل على الأطفال ليلاً عندما يسمع سعالاً أو بكاءً، فيغطي الواحد منهم ويهدهده، وإذا لم يفلح في ذلك يوقظها لتسهر على المريض.

11. ما أحلاك يا موسكو!

في الأسبوع الخامس بعد القران بدأ شهر العسل فعلاً. المتاعب والإهانات التي تعرّضتُ لها خلال هذه الفترة من أقارب دوستويفسكي حطمت أعصابي لدرجة جعلتني أفكر في الطلاق. صارحت زوجي بتلك المتاعب، وما كان يعرف بالإهانات من جانب ربيبه خصوصاً، فلامني على سكوتي وبدد شكوكي ومخاوفي. وشد العزم على السفر معي غداً إلى موسكو ومن ثم، ربما، إلى الخارج، إذا تمكن من إقناع السيد كاتكوف، رئيس تحرير «البشير»، أن يمنحه سلفة جديدة.

استقبلتني فيرا، شقيقة زوجي، في موسكو خير استقبال. إلا أن أبناءها السبعة عاملوني ببرود. أدهشني موقفهم وأحزنني، حتى علمت سره فيما بعد. كانوا يحبون عمتهم يلينا المتزوجة من رجل شارف الموت ويريدون لها بعد وفاته أن تتزوج من خالهم فيودور دوستويفسكي، ليقيم في موسكو دائماً، فهم يحبونه حباً جماً.

ولكي أخفف من الموقف العدائي الذي قوبلت به في بيت عديلتي أبديت متعمدة بعض الاهتمام بشاب من زوار البيت

لأعيد الاعتبار لنفسي. لكن دوستويفسكي لم يفهمني. وتأكد لي أنه يغار عليَّ كثيراً، فرأيت ألا أتمادى في الكلام والمرح مع أي غريب بحضوره. فالغيرة تؤذيه، إذ خرج عن طوره ساعتها وانهال عليَّ بتقريع شديد حينما عدنا إلى الفندق الذي نزلنا فيه. وفيما بعد تكررت «نوبات» الغيرة حتى في الخارج. ولم أفلح في اجتثاث هذه الصفة الذميمة في طباع دوستويفسكي إلا بالتواضع في المظهر والملبس والتحفظ الشديد بحضور الرجال، حتى أن رفيقاتي أكدن لي عندما عدنا إلى الوطن أنني «شخت» سريعاً في الغربة. ولم يكن ذلك ليسيئني، فزوجي يحبني على ما أنا عليه.

أمضينا في موسكو أياماً لا تُنسى. كنا كل صباح نتفرج على أبرز معالمها ونتفقد كنائس الكرملين وقصوره. وزرنا قبر المرحومة ماريا والدة زوجي التي كان يقدس ذكراها (ولد فيودور دوستويفسكي في موسكو في الثلاثين من نوفمبر 1821). وكنا نتناول طعام الغداء كل يوم تقريباً في منزل عديلتي.

تحسنت علاقتي مع أبنائها وصرت ألازم زوجي طول الوقت حتى تبدد الشعور بالغربة والنفور الذي كاد يستولي عليَّ تجاهه في الأسابيع الأخيرة من حياتنا في بطرسبورغ. وعاد إليَّ مرحي وحبوري. وأكد لي دوستويفسكي أنه استعاد هنا، في موسكو، «زوجته آنّا» بعد أن كاد يفقدها مؤخراً في بطرسبورغ وأن «شهر العسل» الحقيقي قد بدأ بالنسبة إليه.

12. في الخارج: شهور أم سنين؟

عدنا من موسكو إلى بطرسبورغ بعد أن وافقت مجلة «البشير» على منح دوستويفسكي سلفة جديدة بألف روبل. أعلن زوجي عن نيتنا في السفر الى الخارج. فواجه جميع أقربائه هذا النبأ بالاستنكار. وطالبوه أن يترك لهم، فيما لو سافرنا بالفعل، نقوداً تكفي لعدة شهور. ويعني ذلك بالطبع إلغاء الرحلة أصلاً.

كنا نأمل أن يرتاح دوستويفسكي في الخارج شهراً ليشرع في كتابة بحثه المطول عن الناقد «بيلينسكي». لكن إميليا زوجة أخيه ميخائيل أصرت أن يترك لها ولأولادها خمسمئة روبل. ولا بد من اعتماد مئتي روبل لإعالة ربيبه بافل في فترة غيابنا. لم يفلح دوستويفسكي في إقناع إميليا بتأجيل الدفع، وما كان بوسعه أن يمتنع عن مساعدة عائلة المرحوم أخيه. فاستقر رأيه، آسفاً، على تأجيل السفر. ورأيت أن أنقذ الموقف بالتضحية بجهاز العرس، رغم فظاعة هذه الخطوة. لم تعترض أمي على قراري وقالت: «يؤسفني أن تجري الأمور بهذه الصورة، لكنكما إن لم توثقا أواصر الزواج الآن لن تحافظا عليه أبداً». وكان عليّ أن أقنع زوجي بضرورة رهن الأثاث والحلي.

وعندما فاتحته بالموضوع، بعد أن صلّينا معاً في كنيسة المعراج، رفض رفضاً باتاً.

رجوته أن ينقذ حبنا ويمنحني شهرين أو ثلاثة من حياة هادئة سعيدة، وإلا سيفسد كل شيء. وانهمرت دموعي، فأسقط في يده ووافق على السفر مكرهاً. وكانت ثمة إشكالات بخصوص جواز السفر، إذ إن دوستويفسكي محكوم سياسي تحت رقابة الشرطة ولا بد له من الحصول على ترخيص من الحاكم العسكري إضافة إلى الإجراءات الرسمية المعتادة. وساعده في ذلك موظف من المعجبين بأدبه. وارتحلنا لنقضي في الخارج ثلاثة شهور، لكننا لم نعد إلى روسيا إلا بعد أربع سنين!

13. العذراء

أمضينا في برلين يومين في جو مطير غائم، ثم ارتحلنا إلى درزدن. قررنا أن نبقى فيها أكثر من شهر حتى يتمكن دوستويفسكي من إنجاز بحثه المعقد في النقد الأدبي. كان يحب درزدن أساساً بسبب معرضها الشهير وحدائقها الزاهرة. وكان يقف الساعات الطوال متاثراً منفعلاً أمام عذراء السيكستينا التي يعتبرها أسمى مظهر لعبقرية الإنسان. (ورد ذكر عذراء رافائيل هذه، على سبيل المقارنة والتشبيه، في العديد من مؤلفات دوستويفسكي، وبخاصة «الجريمة والعقاب»). وفيما بعد، في فلورنسا، أعجب بلوحة رافائيل «يوحنا المعمدان في الصحراء»، وفي بازل كانت له وقفة طويلة مؤثرة أمام لوحة هانس هولبان الابن «المسيح في اللحد» التي تركت في نفسه شعوراً بالانسحاق الفظيع انعكس في رواية «الأبله». وكان يقيم وزناً للوحات تيتسيان وموريليو ورمبرانت وفان دايك بخاصة.

في درزدن انكبّ دوستويفسكي على قراءة ألكسندر هيرتسن أحد أعمق المفكرين الروس الذين كان لهم تأثير كبير في أدبه.

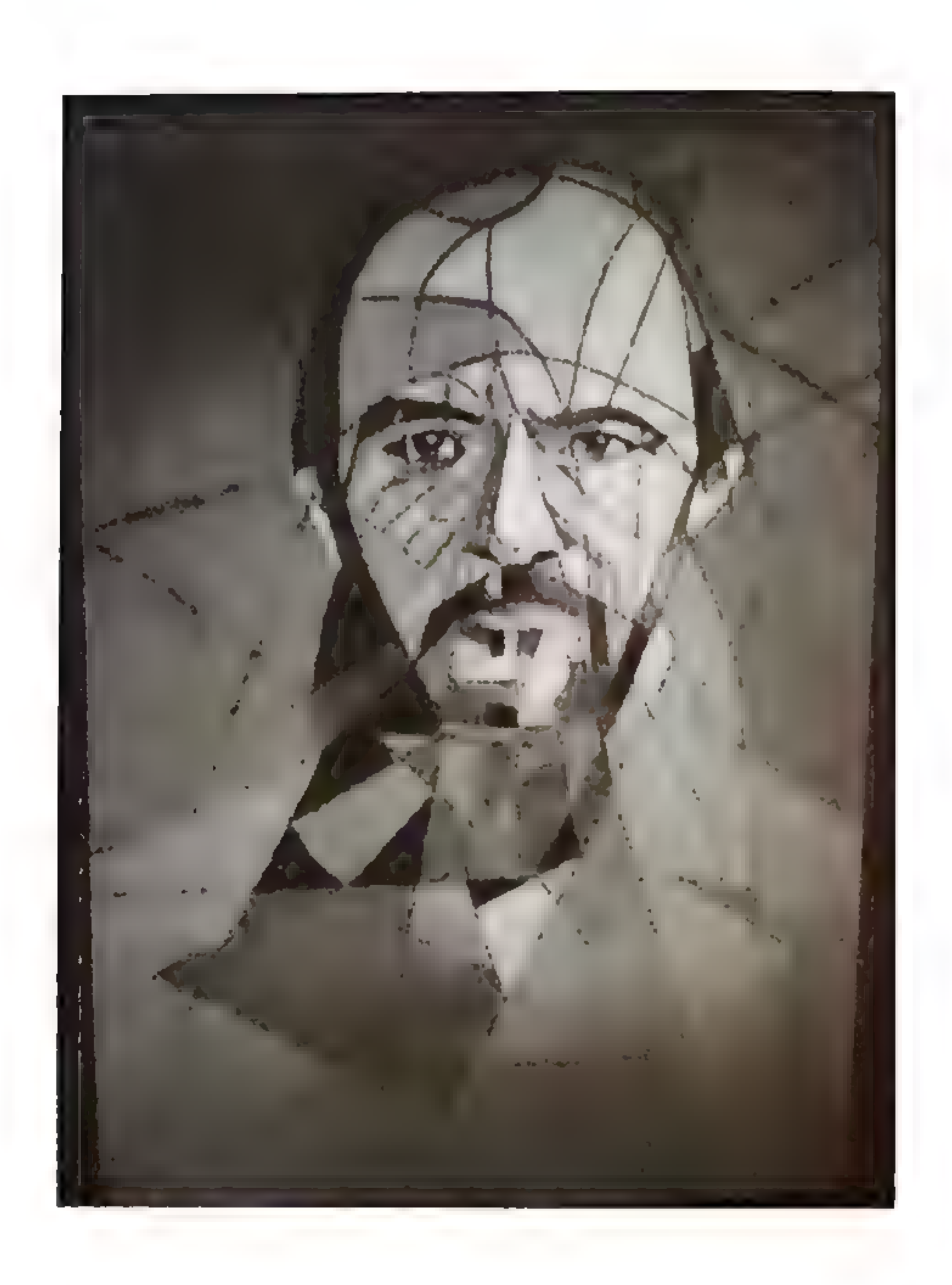
وفي أوقات الفراغ يطلق العنان لبعض عاداته المحببة. فكان يتناول يومياً سمكاً مقلياً طازجاً في مطعم مطل على نهر إلبا، ويتمشى في حديقة غروسين غاردن والمسافة إليها من الفندق لا تقل عن سبعة كيلومترات ذهاباً وإياباً. ولم يكن يتخلى عن هذه الجولة حتى في الجو الممطر. في تلك الحديقة مطعم تعزف جوقته أصنافاً من الموسيقى. ولم يكن دوستويفسكي على إلمام كبير في فنونها، لكنه يتمتع بموسيقى موزارت وبتهوفن وروسيني، ولا يحب ريتشارد فاغنر (ربما لأن دوستويفسكي تربى على تقاليد الموسيقى الروسية الكلاسيكية وعلى رومانسية غلينكا).



14. الحركة النسوية

كنا في الأمسيات نتجادل في مواضيع شتى. وفي الجدال تطفو خلافاتنا الفكرية، حول «المسألة النسوية» خصوصاً. فقد كنت، من حيث السن والميول، من جيل الستينات الذي تميزت نساؤه بالنزعة التحررية والرفض العدمي. وكان فيودور دوستويفسكي لا يحب الروافض ويشمئز من «رجولتهن» وخشونتهن وعدم اكتراثهن لمظاهر الأنوثة. كان يؤلمني في نقاشات زوجي معي أنه ينكر على نساء جيلي صلابة العود والمثابرة في بلوغ الهدف المنشود.

لكن موقفه من المرأة تبدل تماماً في السبعينات عندما ظهرت على المسرح نساء مثقفات وذكيات فعلاً ينظرن إلى الحياة بمنظار انتقادي إيجابي. وفي تلك الفترة أكد في مجلته «يوميات الكاتب» (1873) أنه يعلق آمالاً عريضة على المرأة الروسية التي «أخذت تبدي المزيد من المواظبة والجدية والصدق والعفة والتضحية والبحث عن الحقيقة»، على حد تعبيره.



15. الإمبراطور ألكسندر الثاني

أشيع في درزدن أن إمبراطور روسيا تعرض لمحاولة اغتيال أثناء زيارته للمعرض الدولي في باريس وأن إرهابياً من أصل بولوني أصابه بعيارات نارية. كان لهذا النبأ وقع الصاعقة في نفس دوستويفسكي. فهو من المعجبين بالقيصر ألكسندر الثاني الذي ألغى القنانة وحرر الفلاحين منها وأقدم على الإصلاح. ثم إن دوستويفسكي من المتحمسين للنظام الملكي عموماً ويدعو إلى اتحاد الشعب مع «القيصر المحرر» المتنور. زد على ذلك أنه مدين للإمبراطور الحالي باسترجاع حقوقه المدنية كنبيل أباً عن جد، وقد سمح له القيصر، بمناسبة اعتلائه العرش، بالعودة إلى بطرسبورغ بعد الإقامة الجبرية في سيبيريا.

أسرعنا حالاً إلى قنصليتنا في درزدن لتسجيل حضور ولاستنكار هذه الفعلة الشنيعة. امتقع لون دوستويفسكي وكان في اضطراب نفساني شديد، حتى أنه مضى إلى القنصلية راكضاً تقريباً. وكنت أخشى عليه من نوبة صرع جديدة. وقد أصابته فعلاً في تلك الليلة. من حسن الحظ أن محاولة الاغتيال كانت

فاشلة. إلا أن زوجي ظل حزيناً متألماً للغاية. فتلك هي المحاولة الثانية لاغتيال القيصر الذي يحترمه ويعزه، مما يدل على أن شباك التآمر عليه ضربت جذورها عميقاً.



16. الناقد

هدأ روع زوجي، فعاد إلى مقالته المطولة عن بيلينسكي بعد أن عذبته كثيراً لتعقيدها حتى كرر صياغتها خمس مرات وجاءت، رغم ذلك، بشكل لا يرضيه.

كان يريد أن يفضي بكل ما تراكم في نفسه ويعرض رأيه الصادق في هذا الناقد الروسي الكبير الذي يقدر موهبته النقدية ويعترف بتأثيره وبفضله في تشجيع أدب دوستويفسكي في شبابه، حتى أكد قائلاً: «تبنّيت تعاليمه آنذاك بمنتهى الحماس». لكنه تحول واتخذ موقفاً عدائياً إزاء دوستويفسكي في النهاية.

وما كان بوسع زوجي أن يسامح بيلينسكي على تهكمه وازدرائه لمعتقداته الدينية، فضلاً عن الخلافات الفكرية الأخرى، حول الاشتراكية الإلحادية بخاصة.

ولعل الانطباعات الثقيلة التي خلفتها العلاقات بين دوستويفسكي وبيلينسكي تعود أساساً إلى همهمات ووشايات «الأصدقاء» الذين أقاموا وزناً لموهبة دوستويفسكي في بادئ الأمر ثم انقلبوا عليه لأسباب غير مفهومة، فتأزمت علاقاته مع نكراسوف وتورغينيف خصوصاً.

ولقيت تلك المقالة القيمة مصيراً مؤسفاً. فقد ضاع أثرها. بعثها دوستويفسكي من درزدن إلى موسكو، ولم نعلم بضياعها إلا بعد خمس سنوات. وفي طريقها إلى الضياع وقعت في يد الشاعر مايكوف، فكتب إلى دوستويفسكي عن صراحتها قائلاً إنها لا تصلح للنشر إلا ضمن مذكرات ما بعد الموت.



17. المقامر

بعد ثلاثة أسابيع من مكوثنا في درزدن فاجأني زوجي بتلميح صريح إلى كازينوهات القمار وقال إنه لو كان هنا وحده لعرج عليها من كل بد. ثم تطرق إلى هذا الموضوع أكثر من مرة، فرأيت ألا أقف حجر عثرة في طريقه. اقترحت عليه أن يسافر إلى هامبورغ، فمانع في البداية ثم وافق لشد ما كان راغباً أن «يجرب حظه». وما إن مر يومان أو ثلاثة حتى تواردت عليَّ رسائل منه يبلغني فيها بخسائره ويطلب نقوداً، فبعثت إليه بها، خسرها من جديد. وتكرر الحال مراراً، حتى عاد إلى درزدن خالي الوفاض، لكنه فرح كثيراً عندما حاولت أن أطيب خاطره كيلا يأسف على ما خسر. وكان ما دفعني إلى ذلك طبعاً هو خوفي على صحته.

كانت رحلته الفاشلة إلى هامبورغ أثرت في نفسه كثيراً، فنسب أسباب الخسارة إلى الاستعجال وإلى تجريب أساليب متنوعة قادته إلى الفشل، في حين كانت فرصة الإثراء قاب قوسين أو أدنى. وراح يقنعني بأنه سيتبع طريقة جديدة لا بد أن

تؤدي إلى الفوز. ورأينا أن نتوقف في بادن لأسبوعين فقط كي يجرب حظه في القمار من جديد.

كنا تلقينا حوالة من مجلة «البشير» فغادرنا درزدن بأسف، بهاجس لا يبشر بخير. أمضينا في بادن خمسة أسابيع، في كابوس متواصل قيَّد زوجي بسلاسل من حديد. كانت حساباته في الفوز صحيحة فيما لو طبقها رجل إنجليزي أو ألماني بارد الأعصاب وليس دوستويفسكي العصبي الذي تجاوز كل الحدود. بعد أسبوع خسر كل ما نملك من مال. فاضطررنا أن نرهن حاجياتنا في الكازينو، وفقدتُ حتى هدية الزفاف.

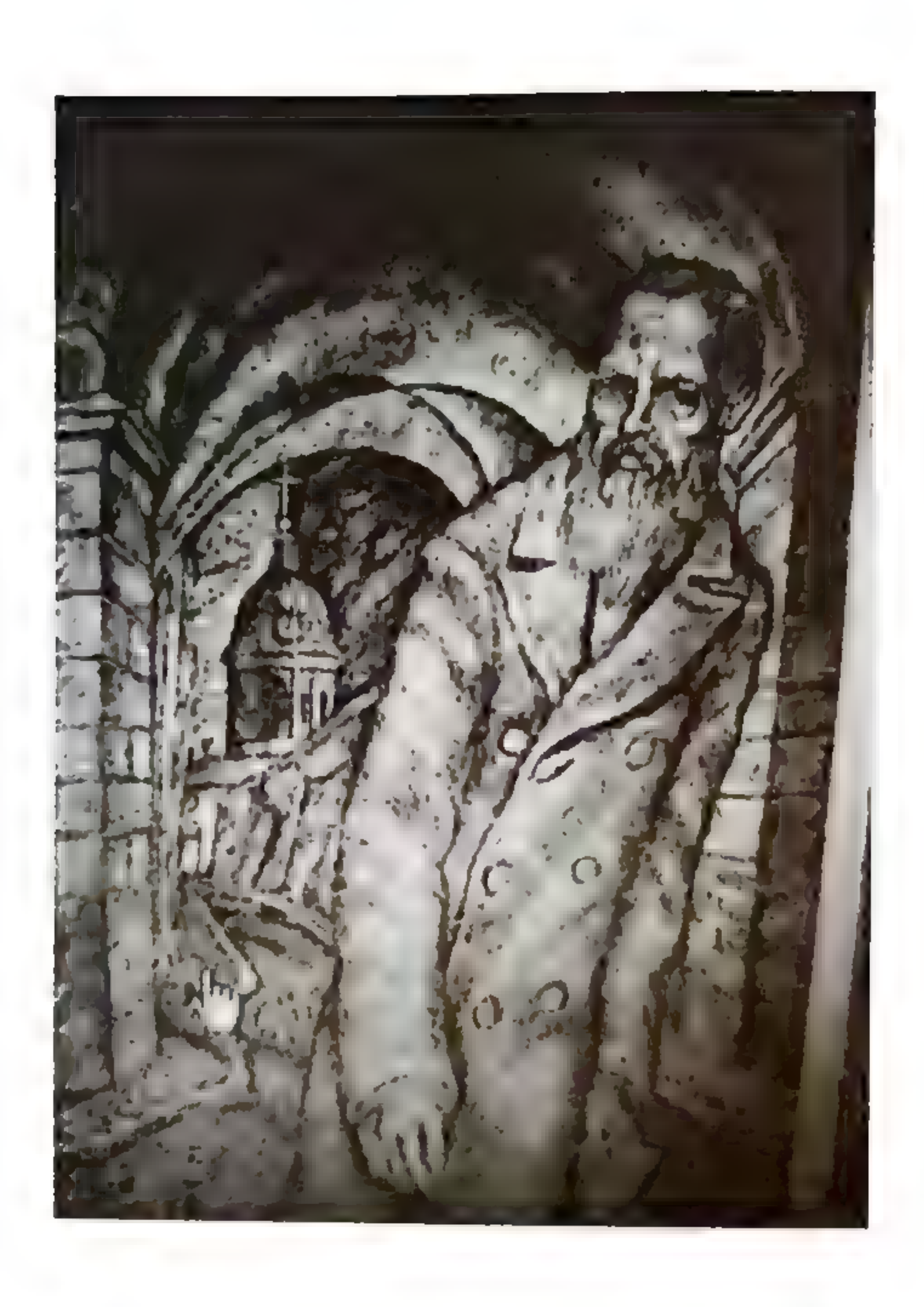
ذات مرة جاءني بكيس مليء بالنقود. حالفه الحظ أخيراً، لكنه لم يتوقف، فخسرها من جديد. وأقول صراحة إني تلقيت «ضربات المصير» تلك بأعصاب باردة. فقد جلبناها لأنفسنا بأنفسنا. وتأكد لي أن دوستويفسكي لن يكسب شيئاً، ولا جدوى من توسلاتي إليه بالكف عن اللعب.

في البداية استغربت من هذا الرجل الذي تحمَّل بمنتهى البسالة آلام السجن والإعدام الوشيك والنفي والأشغال الشاقة ووفاة أخيه وزوجته، لكنه عاجز عن التوقف والامتناع عن المجازفة بآخر فلس. وكنت أعتبر ذلك أمراً لا يليق بمنزلته، ويصعب عليَّ أن أعترف بنقطة الضعف المشينة هذه في طباعه. لكنني سرعان ما أدركت أن ذلك ليس مجرد ضعف إرادة، بل هو مرض لا علاج له سوى الفرار من هذا الجحيم. فقد كان دوستويفسكي عندما يعدم الوسيلة للحصول على المال يقع

فريسة لحزن بالغ حتى أنه يبكي بأحر الدموع ويركع أمامي طالباً الصفح على ما يسببه لي من آلام. وكنت أسعى إلى تهدئته وألجأ إلى شتى السبل لصرف أنظاره عن الولع بالقمار.

عدنا، بسبب الإفلاس هذه المرة، إلى ممارسة رياضة المشي وتجولنا في قلاع بادن وحصونها القديمة، وكانت كل جولة تستغرق نهاراً كاملا. وعندما تصلنا الحوالات المالية تتوقف جولاتنا وتنتهي حياة الدعة والاطمئنان، إذ تبدأ كوابيس القمار من جديد.

لم يكن لدينا معارف وأصدقاء في هذه المدينة. ذات مرة التقينا صدفة بالكاتب الروسي الكبير إيفان غونتشاروف، ولم يعجبني مظهره ولهجته. كان أشبه بموظف حكومي عادي. وزار دوستويفسكي، من دوني، منزل إيفان تورغينيف المقيم في بادن آنذاك، وعاد منه في أقصى درجات الانفعال.



18. الهروب إلى جنيف

وأخيراً هربنا من جحيم بادن إلى نعيم جنيف. استأجرنا شقة متواضعة بعد أن تعودنا على شظف العيش. وعدنا إلى حياة الانتظام: دوستويفسكي يكتب ليلاً، ويستيقظ متأخراً، في الحادية عشرة صباحاً، كما تعود في بطرسبورغ. وبعد الفطور يواصل عمله، فيما أمضي للنزهة كما أوصاني الطبيب (كنت حاملاً). وفي الثالثة ظهراً نتغدى في أحد المطاعم ويرافقني زوجي إلى المنزل، ثم يعرج على مقهى يصرف فيه ساعتين في مطالعة جرائد روسية وأجنبية.

وحوالى السابعة مساء نتمشى كثيراً كالعادة. وبعد ذلك يملي عليَّ دوستويفسكي نتاجاً جديداً أو يقرأ كتباً فرنسية. وفي شتاء 1868 قرأ مجدداً «بؤساء» فيكتور هيجو، وكان معجباً خصوصاً ببلزاك وجورج صاند. (ترجم دوستويفسكي رواية «أوجيني غرانده» إلى الروسية، وكان لأدب بلزاك صدى في مؤلفاته، فثمة تشابه بين أبطال «الأب غوريو» و«الجريمة العقاب» وكذلك بين أبطال «الحانة الحمراء» و«الإخوة

كارامازوف»، كما ترجم عام 1844 قصة جورج صاند «الأخير من سلالة ألديني»، وكان لنتاج هذه الكاتبة تأثير كبير عليه في مطلع حياته الأدبية).

وفي جنيف أيضاً لم يكن عندنا أصدقاء. دوستويفسكي بطبيعته غير ميال إلى البحث عن معارف جدد. ولم يلتق هناك أحداً من المعارف القدامى، ما عدا الشاعر الروسي المعروف نيكولاي أوغاريوف الذي أخذ يتردد علينا كثيراً ويزودنا بالكتب والمجلات، حتى أنه صار يقرضنا في بعض الأحيان مبلغاً زهيداً نعيده إليه كلما تحسنت أحوالنا. كان طاعن السن وكنا نرتاح إليه، إلا أنه انقطع عنا بعد ثلاثة أشهر. فقد مرض ونقله أصدقاؤه إلى إيطاليا للعلاج.

ولسوء الحظ سرعان ما خابت آمالنا في نعيم جنيف. تردت الأحوال الجوية وأثرت العواصف والأمطار وتقلبات الطقس اليومية في صحة زوجي، فتوالت عليه نوبات الصرع. كان آنذاك، في خريف 1867، قد شرع في تأليف «الأبله»، ولم يكن راضياً عن الفصول الأولى من الرواية، كعادته في موقفه من كل ما يكتبه. كان يعجب أشد الإعجاب بفكرة كل رواية، لكنه ما إن يفرغ منها حتى يشعر بالضيق وعدم الرضا.

في جنيف ولدت ابنتنا البكر صوفيا في 22 فبراير 1868. ولشد ما عانيت من عسر الوضع، ولشد ما تألم دوستويفسكي وصلى وبكى خائفاً علي من الموت. وفيما بعد وصف مشهد الولادة في رواية «الشياطين».

كان دوستويفسكي أباً من أرقّ الآباء. لكن الحظ لم يحالفنا إذ مرضت الطفلة وتوفيت في شهرها الثالث. ولم يكن لحزننا حدود. كنا نتردد على المقبرة كل يوم نحمل الزهور ونذرف الدموع. ولم يعد البقاء بهذه المدينة في طاقتنا.



19. إيطاليا

استقر رأينا على الرحيل إلى فيينا. ولا أذكر طوال 14 عاماً من حياتنا الزوجية أننا عشنا صيفاً حزيناً لهذا الحد كصيف 1868 في تلك المدينة، حتى لكأن الحياة توقفت وتجمدت بالنسبة إلينا. كل أحاديثنا وذكرياتنا تدور حول الفقيدة وكل طفل نلقاه في الشارع يذكّرنا بها.

واصل زوجي بشق الأنفس كتابة «الأبله»، لكنها لم تجلب له السلوى. فسافرنا إلى ميلانو، وأدى تبدل الموقف وانطباعات الطريق إلى بعض التحسن في مزاج دوستويفسكي، لكن خريف هذه المدينة بارد مطير، وليس في مكتباتها جرائد روسية، فانتقلنا بعد شهرين إلى فلورنسا عاصمة إيطاليا آنذاك. ولحسن الحظ وجدنا في مكتبتها الرائعة جريدتين روسيتين مكنتا زوجي من الاطلاع على الأوضاع في الوطن يوماً بيوم. واستعار لأشهر الشتاء مؤلفات فولتير وديدرو وقرأها بالفرنسية التي يجيدها تماماً. (فيما بعد تجلى تأثير «كانديد» واضحاً في «الإخوة كارامازوف» وتجلى تأثير ديدرو في «الأبله» وفي «مذكرات من تحت الأرض»).

حل عام 1869 وجاءتنا معه فرحة، إذ اتضح أني حامل من جديد. أبدى دوستويفسكي عناية بالغة بصحتي. حتى أنه أخفى عني أحد مجلدات رواية الكونت الشاب ليف تولستوي «الحرب والسلام» التي صدرت تواً لمجرد أن الكاتب يصف في ذلك المجلد وفاة زوجة الأمير أندريه بولكونسكي أثناء الوضع. كان يخشى عليَّ من تأثير هذا الوصف الفني البارع.

تعودنا على حياة الشظف والعناء، لكن مشكلة أخرى واجهتنا. فقد أدرك دوستويفسكي فجأة أنه ابتعد عن روسيا كثيراً خلال العامين الأخيرين وصار الحنين يشده إليها. وشعر بحاجة ماسّة إلى مادة من الواقع الروسي تمكنه من مواصلة الكتابة. فاقترحت عليه أن نقضي الشتاء في براغ المدينة السلافية الأقرب روحياً إلى الأجواء الروسية. ولصعوبة الطريق عليَّ توقفنا في البندقية لأربعة أيام لم نبارح فيها تقريباً ساحة القديس مرقص لشد ما أعجب زوجي بمعمار كنيسته وبسقف قصر الأمطار الذي تزينه لوحات أفضل رسامي القرن الخامس عشر.


ДОСТОЕВСКИЙ

20. «الخاطئ»

وصلنا إلى براغ بعد عشرة أيام من التجوال والترحال. وتعذرت علينا الإقامة فيها لغلاء المعيشة وارتفاع الإيجار. فاضطررنا إلى مغادرتها بأسف بعد ثلاثة أيام. تبددت أمنية زوجي في لقاء العالَم السلافي، ولم يبق أمامنا ساعتها سوى العودة إلى درزدن من جديد. فنحن نعرف ظروفها، وثمة جالية روسية كبيرة قد تسري عنا.

هناك ولدت ابنتي الثانية لوبوف وأشرقت السعادة في عائلتنا.

(فيما بعد غدت لوبوف دوستويفسكايا روائية نشرت عدة مؤلفات وهاجرت من روسيا عام 1913، ولم تعد إليها. أصدرت بالألمانية في 1920 مذكراتها عن والدها فجاءت شخصيته أقرب إلى «صورة أدبية» بعيدة عن الواقع في بعض جوانبها، خلافاً لمذكرات أمها آنّا غريغوريفنا. فالكاتبة كانت قاصرة، في الحادية عشرة، عندما توفي أبوها- المترجم). وفي تلك الفترة أنهى فيودور دوستويفسكي روايته «الزوج الدائم» التي وصف فيها حياته بضواحي موسكو عام 1866.

وانشغل دوستويفسكي، شتاء 1870، في وضع مخطط رواية جديدة ضخمة أراد أن يسميها «الخاطئ». وتتكون من خمس قصص مطولة مستقلة ومترابطة تتناول بمجملها مسألة الخالق والخطيئة التي اهتم بها زوجي طول حياته. ولعل حياة الغربة أيقظت فيه المشاعر المسيحية العميقة والأفكار الدينية الصافية وخلصته من التعنت والمكابرة، فجعلته أكثر طيبة وتسامحاً واستسلاماً، الأمر الذي تجلى بأفضل تعبير في مؤلفاته. كان يريد لأحداث القصة الأولى من «الخاطئ» أن تجري في الأربعينات، ومادتها متوفرة ونماذج شخوصها حاضرة في ذهنه، وكان بوسعه أن يشرع في كتابتها وهو في الخارج. إلا أن مادة القصة الثانية تعوزه. أحداثها تجري في أحد الأديرة الروسية وبطلها الرئيسي شخصية واقعية وهو القسيس تيخون زادونسكي باسم آخر طبعاً.

وكان لا بد لنا من العودة إلى روسيا لتوفير المادة لرواية يعلق عليها دوستويفسكي أهمية بالغة ويريد لها أن تكون خاتمة لنشاطه الأدبي. لكنه لم يتمكن من تحقيق ما أراد لأنه انشغل في موضوع آخر هو رواية «الشياطين» (1871) التي تناولت الحياة السياسية في روسيا آنذاك. ولم يكن دوستويفسكي راضياً عن الرواية حتى أنه أتلف خمس عشرة ملزمة من مخطوطتها وأعاد صياغة الجزء الثالث بالكامل. ويبدو أن الرواية المتحيزة سياسياً لا تتلاءم وروح نتاجه. ومع ذلك حظيت «الشياطين» بإقبال واسع لدى القراء، لكنها من جهة أخرى جلبت المتاعب

لدوستويفسكي وخلقت له أعداءً كثيرين في الوسط الأدبي. وانهالت عليه عشرات الصحف والمجلات من اليمين واليسار بالتقريع والتنديد دون أن تقدم تحليلاً للرواية، واعتبرها النقاد تحاملا مجحفاً وتجنياً لا مبرر له على الحركة الثورية الروسية والشباب المعاصر.

وعندما أخفق دوستويفسكي في كتابة «الخاطئ» لم يهمل موضوعها، فأدرج كثيراً من شخوصها فيما بعد ضمن «الإخوة كارامازوف» التي غدت بالفعل خاتمة لنشاطه الأدبي.

21. التوبة

مر على منفانا الاختياري في الخارج أكثر من أربعة أعوام. وكنت أتصوره سجناً دخلته ولن أتمكن من تركه. كانت بارقة الأمل في العودة إلى روسيا تلوح وتختفي بين حين وآخر. وعندما تختفي تنتابنا كآبة لا تطاق. فيقول دوستويفسكي آنذاك إن موهبته الأدبية نضبت وإنها ستذوي وتموت. ولكي أخفف عليه لجأت إلى الوسيلة المجربة سابقاً. اقترحت عليه أن يسافر إلى فسبادن ليسلي نفسه بالقمار عسى أن يحالفه الحظ. وكنت في الحقيقة أريد أن أضرب عصفورين بحجر. فأنا واثقة أنه سيخسر البقية الباقية من نقودنا. لكنه سيفارق همومه من جهة ويعود من جهة أخرى إلى الكتابة بهمة تعوض لنا ما خسرناه. وكما توقعت جاءت النتيجة مؤسفة، فخسر زوجي كل ما عنده. وتعرض لتأنيب ضمير لازمه أسبوعاً لأنه حرم زوجته وابنته من لقمة العيش!

ولكنه صمم هذه المرة على التخلص من هذا المرض الذي عذبه طوال عشر سنين. وعدني بعدم المعاودة إلى القمار مدى الحياة. ولم أصدقه بالطبع. فما أكثر ما كرر وعده فيما مضى.

لكنه وفى به هذه المرة، وكف عن اللعب إلى الأبد. ففي رحلاته المتكررة التالية إلى الخارج لم يفكر يوماً في الذهاب إلى الكازينوهات. صحيح أنها أغلقت في المانيا بعد رحيلنا، لكنها ظلت مفتوحة الأبواب في سكسونيا ومونت كارلو، والمسافة إليهما ليست بعائق على أية حال. إلا أن دوستويفسكي تخلص، والحمد للّه، من هذا العيب الشنيع.

شددنا الرحال إلى روسيا في 5 يوليو 1871. جمع زوجي مخطوطاته وطلب مني أن أحرقها. مانعت قدر المستطاع، لكنه أقنعني بأن رجال الشرطة على الحدود الروسية سيصادرونها في كل الأحوال، كما فعلوا أثناء اعتقاله عام 1849. وهكذا أتلفت مخطوطات «الأبله» و«الزوج الدائم» و«الشياطين».

وحينما وصلنا الحدود تعرضنا لتفتيش دقيق، كما كان متوقعاً. لكن كل شيء مر بسلام، فما أعظم فرحتنا ونحن نعود إلى الوطن!



دوستويفسكي بريشة طفلة في التاسعة من العمر

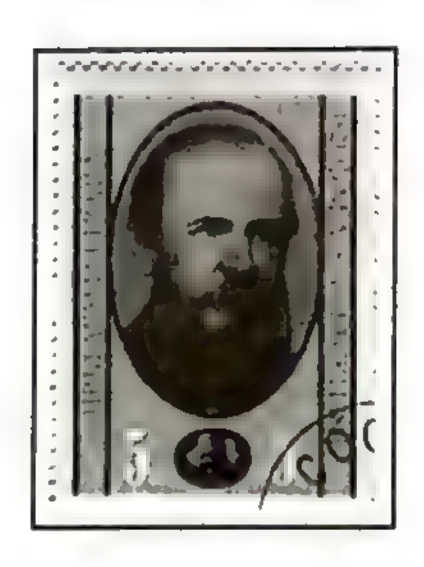
22. العودة

عدنا من ألمانيا إلى بطرسبورغ في نهار صحو قائظ. إلا أن دوستويفسكي تصور مستقبلنا ضبابياً قاتماً وتوقع لنا مصاعب جمة لا بد من تذليلها حتى نجد موطئ قدم على أرض الوطن. استأجرنا غرفتين في شقة مؤقتة قرب منتزه يوسف. وكنت حاملاً في انتظار المولود الثالث. بعد ثمانية أيام من وصولنا رزقت بابني فيودور الذي سميته تيمناً باسم أبيه. (تخصص فيما بعد بتربية الخيول وكسب مالاً من هذه الصنعة). ثم انتقلنا إلى شقة من أربع غرف.

تقاطر عليا أقرباؤنا رأساً، واستقبلناهم ببشاشة وترحاب. ومن حسن الحظ أن أولاد شقيق دوستويفسكي وأمهم إميليا صاروا يعيشون في بحبوحة ولم يعودوا ينتظرون منه مساعدة إلا في حالات استثنائية. لكن ربيبه بافل، وكان تزوج قبل شهور، ظل يعوّل على «والده» متصوراً أن دوستويفسكي ملزم بإعالته حتى الشيخوخة. وفي غيابنا تجرأ على بيع محتويات مكتبة زوجي الغنية. وكان ضياع المكتبة ضربة قاسية لدوستويفسكي.

من جهة أخرى هجم علينا «جيش» من الدائنين حالما قرأوا

في الصحف نبأ عودة الكاتب فيودور دوستويفسكي، وهددوه بالسجن إن هو عجز عن تسديد الديون المستحقة من زمان. ومن ذلك الحين بدأت «معركتنا» الطاحنة مع الدائنين واستمرت تنغص حياتنا يومياً طوال عشر سنين حتى وفاة زوجي في بداية 1881.



23. الرسام

ورغم المنغصات كان شتاء 1872 حافلاً باللقاءات الهامة. استعاد دوستويفسكي اتصالاته مع العديد من أصدقائه القدامى، والتقى بطائفة من علماء عصره كالمستشرق غريغوريف الذي نرى صدى لأفكاره في رواية «الشياطين» والفيلسوف نيكولاي دانيليفسكي مؤلف كتاب «روسيا وأوروبا» الذي ترك أثراً ملحوظاً في آراء دوستويفسكي بخصوص «رسالة روسيا» كدولة غربية وشرقية في آن معاً.

وفي ذلك العام رغب بافل تريتياكوف صاحب معرض الصور (الجاليري) الشهير في موسكو، وهو من المعجبين بنتاج دوستويفسكي، أن يحصل على صورة زيتية له، فأوفد إلى بطرسبورغ لهذا الغرض الرسام الروسي المعروف فاسيلي بيروف. وقبل أن يبدأ هذا الأخير عمله صار يتردد علينا يومياً طوال أسبوع ويفاجئ دوستويفسكي في شتى أحواله غير العادية ويحاوره ويستفزه خصيصاً للخوض في مواضيع شائكة، إلى أن تمكن من «تصيد» أعمق تعبير في ملامح زوجي وهو شارد الذهن غارق في تأملاته الفنية. التقط بيروف «لحظة الإبداع» أو

الذهول التي كنت تلمستها مراراً وأنا أدخل على زوجي مكتبه لأمر ما، فأجده غائصاً في ذاته يحدق فيها من الداخل، وأخرج دون أن أكلمه. وفيما بعد يتضح لي أنه لم يشعر حتى بوجودي ولا يصدق بأني دخلت عليه المكتب في تلك اللحظة.

كان بيروف رجلاً ذكياً لطيف المعشر. وكان دوستويفسكي يرتاح إليه كثيراً حتى أنه كتب عنه في الصحف مرتين. وقد حضرتُ جميع مراحل رسم الصورة النصفية الشهيرة في أبريل - مايو 1872. ويتميز هذا البورتريه بقيمة فنية يعترف بها الجميع ولا تضاهيها من هذه الناحية سوى صورة نصفية أخرى بالحجم الطبيعي لدوستويفسكي رسمها كرامسكوي في اليوم الثاني لوفاة الكاتب.

24. المربية

إنني أحتفظ بأطيب الذكريات عن ربيع 1872، لكن صيف ذلك العام كان أتعس فترة في حياتي. إذ توالت المصائب فيه الواحدة بعد الأخرى. كنا استأجرنا منزلا ريفياً يمتلكه قسيس طيب للغاية في بلدة ستارايا روسا الخشبية حيث البيوت كلها من خشب، وحتى أرصفة الشوارع مكسوة بالألواح الخشبية، وفيها حمامات للعلاج بالمياه المعدنية. لكننا اضطررنا أن نترك رضيعي، وهو في شهره التاسع، في عهدة القسيس والمربية ونعود حالاً إلى بطرسبورغ لأن ابنتي لوبوف تعرضت لحادث انكسرت يدها فيه، وأجريت لها عملية تجبير فاشلة ثم عملية جراحية في منتهى التعقيد. وفي نفس الفترة توفيت أختي الكبرى في روما وانكسرت رِجل أمي.

بعد إجراء العملية الجراحية لابنتنا عاد دوستويفسكي إلى الريف في اليوم الثالث، وبقيت أنا في العاصمة أسهر على صحتها في المستشفى. ولشد ما دهشت حينما عدت إلى البلدة بعد أسبوعين ورأيت أن صغيري نسيني تماماً. كان يفر مني، أنا أمه ومرضعته، ويلوذ بأذيال المربية العجوز. وهي والحق

يقال امرأة في منتهى الطيبة والأريحية والمرح (تحتسي قدحاً من الفودكا على الغداء كل يوم بمناسبة وبغير مناسبة) ولا يعكر صفو حياتها سوى قلقها على ابنها الذي لا يراسلها. كان دوستويفسكي يعزها ويعتز بها لحبها الخالص لصغيرنا، وقد اتخذ منها في «الإخوة كارامازوف» نموذجاً للعجوز التي تتقرب للكنيسة وتتصدق على المساكين ترحماً على روح ابنها وهي تعلم حق العلم أنه على قيد الحياة. ولم تكن تلك الصورة من ابتداعات دوستويفسكي. فإن مربيتنا كانت تتصرف هكذا بالفعل، حتى أن زوجي نصحها بأن تكف عن هذه العادة وتنبأ بوصول رسالة من ابنها في القريب العاجل. وهذا ما حصل في الواقع.

وبسبب برودة ذلك الصيف أصبت بمرض تسبب في ظهور دمل في الحنجرة حبس أنفاسي وأشرفت على الموت. لكن اللّه ستر وزال الخطر. أما آثار كل تلك الأحداث فقد حفرت عميقاً في نفس دوستويفسكي المرهف الأحاسيس، المتيم بحب طفليه وأمهما.

25. النشاط الطباعي

أتعبت رواية «الشياطين» دوستويفسكي كثيراً طوال ثلاث سنين حتى رأى بعد الفراغ منها أن يؤجل البدء برواية جديدة حيناً من الوقت. أراد أن يصدر مجلة شهرية فريدة من حيث الشكل والمضمون بعنوان «يوميات الكاتب» (يعد مادتها وحده من ألفها إلى يائها)، لكن الصعوبات المالية جعلته يؤجل هذا المشروع أيضاً. وعرض عليه الأمير ميشيرسكي أن يترأس تحرير مجلته الأسبوعية المحافظة «المواطن»، فقبل دوستويفسكي العرض على مضض ولفترة محدودة.

لكنه جنى على نفسه من وراء ذلك. فقد انتقل إليه، بصفته رئيساً للتحرير، العداء الذي يضمره لصاحب المجلة خصومه الفكريون. ومما يثير الاستغراب أن الكثيرين ظلوا، حتى بعد وفاة دوستويفسكي، يلومونه على مساهمته في تحرير «المواطن». (كتب صديقه فسيفولود، الأخ الأكبر للفيلسوف الروسي الشهير فلاديمير سولوفيوف، يقول لاحقاً: تمادى أعداء مؤلف «الجريمة والعقاب» في التهجم عليه والسخرية منه وأطلقوا عليه أبشع النعوت كالخائن والمرتد والمعتوه والمهووس. وكانوا يدعون

الناس لمشاهدة صورة دوستويفسكي بريشة الرسام بيروف حتى يتيقنوا أنه مجنون حري بدار المجاذيب!).

كانت بداية عام 1873 نقطة انعطاف بالنسبة إلينا، حيث أصدرنا «الشياطين» معتمدين على أنفسنا في طبعة مستقلة غدت باكورة نشاطنا المشترك أنا ودوستويفسكي في الطباعة والنشر. وبعد نجاح هذه الخطوة أصدرنا «الأبله» ورأينا أن نعيد طبع «مذكرات من بيت الأموات» لنفاد طبعتها الأولى من سنين.

كنا قبل ذلك نأمل في تحسين أوضاعنا المادية ببيع حقوق نشر «الأبله» ثم «الشياطين» في طبعة مستقلة. كل مؤلفات دوستويفسكي، ما عدا «المقامر»، نشرت بادئ ذي بدء في المجلات الفكرية الضخمة. لكننا واجهنا صعوبة، ونحن في الخارج، في بيع حقوق النشر. ولم يكن الأمر أسهل حتى حين عدنا إلى روسيا واتصلنا بالناشرين مباشرة. فقد عرضوا علينا مبالغ زهيدة للغاية. دفع لنا أحد الناشرين مئة وخمسين روبلاً فقط مقابل إصدار «الزوج الدائم» بألفي نسخة.

وعرض علينا ناشر آخر خمسمئة روبل لا غير تُدفع على أقساط مقابل «الشياطين». إلا أن فيودور دوستويفسكي كان منذ شبابه يحلم بطبع مؤلفاته بنفسه.

ومن جهتي رحبت بالفكرة وتحمست لها ولم أكن أدري أني سأكرس لها، بعد وفاة زوجي أيضاً، ثمانية وثلاثين عاماً من حياتي. وكان دوستويفسكي أهداني حقوق طبع مؤلفاته من سنة 1873.

في تلك الفترة ما كان أحد من الكتّاب الروس تجرأ على إصدار مؤلفاته بنفسه. فكنا رواداً في هذه المجازفة. وكانت الحسابات مشجعة، تفيد أن إصدار مجلدات «الشياطين» الثلاثة بـ 3500 نسخة يكلف أربعة آلاف روبل على وجه التقريب، في حين يمكن أن تباع نسخها عموماً بـ 12 ألف روبل يذهب ثلثها في أحسن الأحوال للموزعين. فاقترضنا مبلغاً لستة شهور. ونشرنا إعلاناً عن قرب صدور الكتاب. وما كان أشد فرحتنا عندما تقاطر على دارنا رسل المكتبات التجارية ليشتروا عشرات من النسخ نقداً بتنزيلات تتراوح بين 20 و 30 في المئة من سعر الغلاف.

على أية حال، بدأ نشاطنا الطباعي موفقاً تماماً، فبيعت نسخ الكتاب قبل أن ينتهي العام وتجاوز صافي عائداته أربعة آلاف روبل. وكان ذلك مبعثاً لارتياحي بخاصة. أما دوستويفسكي فقد سره كثيراً إقبال الجمهور على الرواية. فالقراء هم سنده الوحيد في ميدان الأدب. ولم يبذل النقاد (ما عدا بيلينسكي ودوبرولوبوف) آنذاك جهداً للكشف عن موهبته. تجاهله بعضهم، فيما أضمر له البعض الآخر العداء، بل جاهروه به. وعندما أراجع كتاباتهم اليوم، بعد خمسة وثلاثين عاماً من وفاة دوستويفسكي، تدهشني بسطحيتها وحقدها الأعمى.



26. العداء ينقلب تعاوناً

في أبريل 1874 ترك دوستويفسكي مجلة «المواطن» بعد أن عانى منها الأمرَّين، حتى أنه غرم مالياً بحكم المحكمة وأودع السجن يومين عقاباً على إحدى مقالاته فيها. وعاد إلى النتاج الأدبي الصرف بتشوق كبير، حيث شرع بكتابة «المراهق».

في ذلك الشهر زارنا على غير عادته الشاعر الكبير نيكولاي نكراسوف، صديق الطفولة و«عدو» الكهولة. أثار مجيئه فضولي لدرجة جعلتني أقف وراء الباب أتنصت لما يدور بينه وبين زوجي. كنت مطلعة على الصراع الفكري بين مجلة نكراسوف «المعاصر» ومجلتي الأخوين دوستويفسكي «الوقت» و«العصر» في الستينات. ثم إن مجلة نكراسوف الأخرى «مذكرات الوطن» لم تكن تستنكف عن مهاجمة دوستويفسكي. وما كان أعظم فرحتي عندما سمعت نكراسوف يدعو زوجي للتعاون ويعرض عليه نشر «المراهق» في مجلته بأجر مغر (250 روبلاً للملزمة وليس 150 كما في مجلة «البشير الروسي»).

لعل نكراسوف تصور، عندما رأى أوضاعنا المزرية، أن دوستويفسكي سيطير فرحاً، ويوافق على اقتراحه. إلا أن زوجي

شكره وقال: لا يليق أن أقبل هذا العرض من دون علم «البشير». فلي معها علاقات طيبة، وقد تحتاج إلى نتاجي. ثم ارتحل دوستويفسكي إلى موسكو ليناقش هذا الموضوع شخصياً مع كاتكوف رئيس تحرير «البشير الروسي». فوافق هذا الأخير على السعر الجديد، لكنه اعتذر عن تقديم السلفة، فالمجلة اشترت مؤخراً حقوق نشر رواية ليف تولستوي «آنا كارينينا» على مدار عام 1879 ولم يبق لديها فائض من مال. وبهذه الصورة حلت المسألة لصالح نكراسوف.

سر زوجي كثيراً لعودة العلاقات مع صديق طفولته إلى سابق عهدها. إلا أن للمسألة جانباً سلبياً أيضاً. فلدوستويفسكي أعداء كثيرون بين الأدباء العاملين في مجلة نكراسوف ذات الإتجاه الفكري المخالف لآرائه، وقد يضطرونه إلى تغيير فكرة الرواية بحيث تلائم اتجاههم. وما كان بوسعه أن يتنازل عن مبادئه قيد أنملة. وكان من المستبعد أن تنشر «مذكرات الوطن» رواية تتضمن آراء تتعارض وآرائها. وهذا ما أثار قلقنا. فإن دوستويفسكي والحال هذه قد يسحب «المراهق» من المجلة، في حين تبخر المبلغ الكبير الذي استلمناه مقابلها. سددنا قسماً من الديون المستحقة، وسافر زوجي بالتالي إلى ألمانيا للعلاج من النزلة الصدرية في يونيو 1874. وفي طريق العودة بعد شهرين عرّج على جنيف خصيصاً ليزور قبر ابنتنا صوفيا، وجلب لي غصناً من السروة التي غرسناها عند القبر من ست سنين.

27. الشتاء في الريف

بسبب الضائقة المالية (المزمنة) قررنا أن نقضي الشتاء أيضاً في الريف. فالأطعمة والإيجار أرخص مما في العاصمة بمرات. عشنا لأول مرة حياة موزونة هادئة مكنت زوجي من مواصلة كتابة روايته الجديدة، حتى أننا لم نستدع الطبيب له كما كنا نفعل كل شتاء في بطرسبورغ. كان دوستويفسكي يداعب طفليه ويرقص معهما، ومعي أحياناً، على أنغام الكادريل والفالس والمازوركا البولونية وهو في أطيب مزاج. ولذا تدهشني ادعاءات البعض من أنه سوداوي منقبض النفس دوماً. وقبيل المنام يبارك الصغيرين ويرتل معهما «يا أبانا» وسائر الابتهالات الدينية كل ليلة. ولم أر في حياتي رجلاً أكثر منه مهارة في ولوج عالم الأطفال وتشويقهم بحكاياته المثيرة حتى ليغدو واحداً منهم.

كان يعمل كالعادة حتى الثالثة أو الرابعة بعد منتصف الليل ويملي عليّ ساعة أو ساعتين في النهار. عجزت عن الكتابة ذات مرة في موضع من الفصل التاسع من «المراهق» (مشهد انتحار الفتاة). فسألني متحيراً:

- ماذا بك يا عزيزتي ؟ أنت شاحبة جداً، هل تشعرين بوعكة ؟

- كلا. وصفك أرعبني.

- يا إلهي، هل يعقل أن له تأثيراً بهذه الشدة؟ اعذريني، آسف جداً.

كنت بالنسبة إليه محراراً أو مكشافاً يعكس مدى نجاحه في التأليف. فأنا قارئته الأولى، وهو يعتز برأيي ويؤكد أنه تيقن مراراً من صحة انطباعاتي بعد اطلاعه على آراء القراء والنقاد.

وترك الفصل الآنف الذكر انطباعاً عميقاً في نفس نيكولاي نكراسوف، فهو يعتبر مشهد الانتحار «إعجازاً فنياً» ويتلمس في الرواية التي أعجبته للغاية «طراوة افتقدناها من زمان حتى عند ليف تولستوي في كتاباته الأخيرة»، على حد تعبيره. إلا أن لدوستويفسكي رأياً آخر في تلك «الكتابات».

فقد قال عن رواية «آنا كارينينا»: إنها «من عيون الأدب الهامة، وهي أفضل تزكية لنا أمام أوروبا، بل هي تمكننا أن نبز أوروبا». وقال عن ليف تولستوي: «إنه فنان بلغ ذروة الإبداع وإن أمثاله هم معلمو المجتمع، معلمونا، ونحن مجرد تلاميذ لهم».

أتذكر أني، في حينه، قهقهت بأعلى صوتي عندما تلا عليَّ دوستويفسكي حديث الجنرال في «الأبله». وحينما أملى قرار الاتهام على لسان المدعي العام في «الإخوة كارامازوف» قلت له مازحة:

- يا ليتك كنت مدعياً عاماً! بخطابك هذا تنفي حتى الأبرياء إلى سيبيريا!

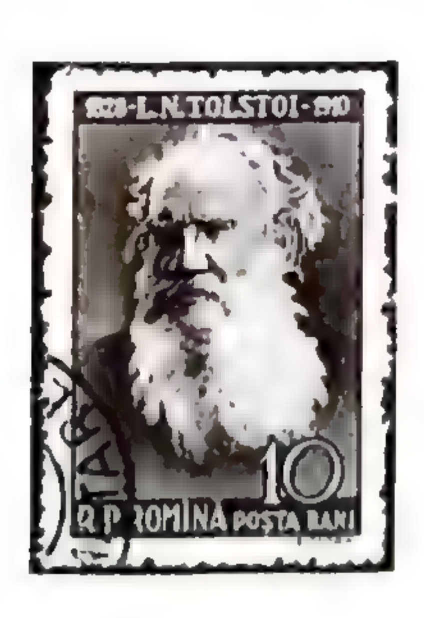
- يعني أن خطاب الاتهام جاء موفقاً؟

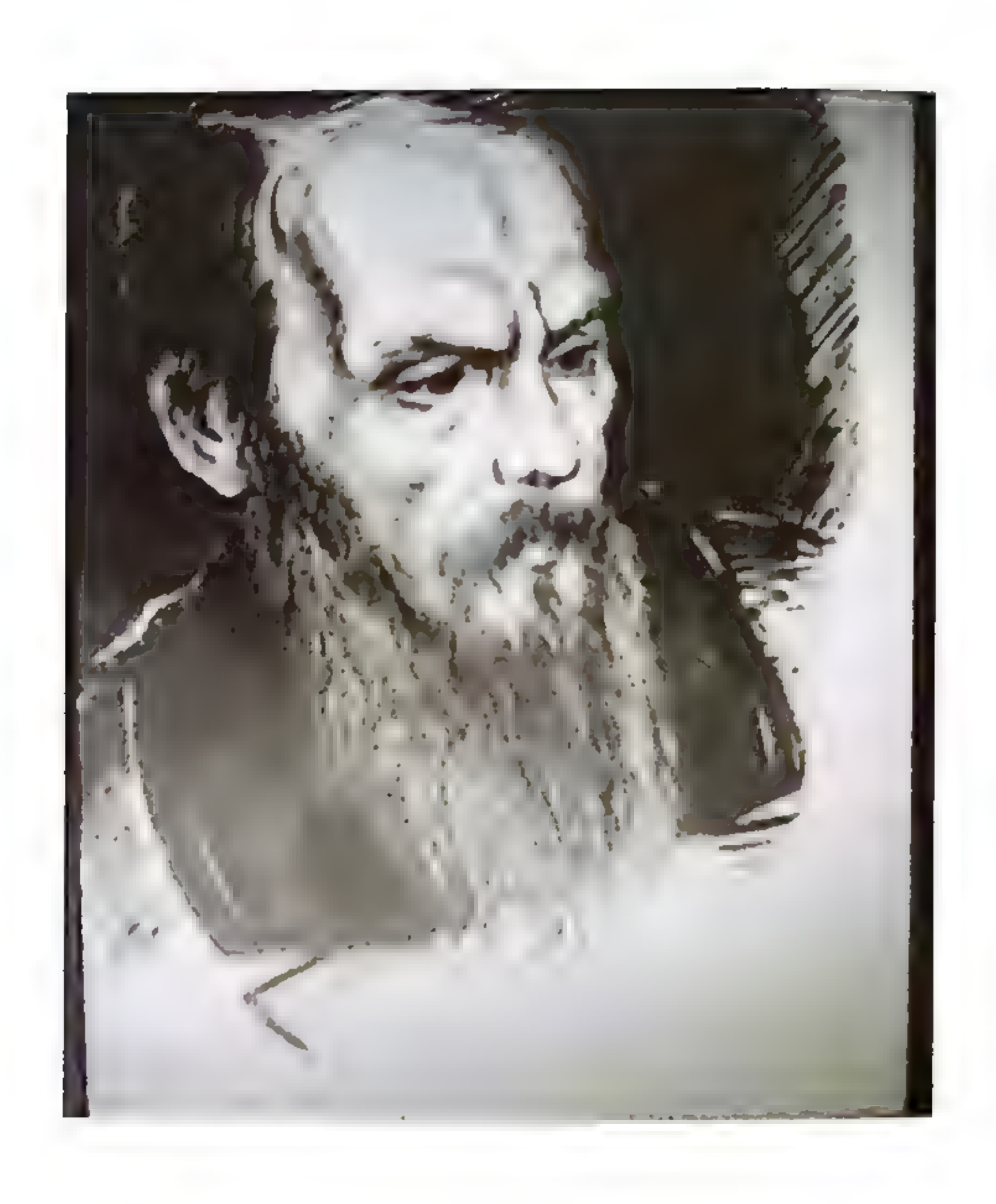
- جداً.

وعندما أملى كلمة محامي الدفاع سألني رأيي فيها فأجبته هذه المرة أيضاً:

- ليتك كنت محامياً، فبوسعك أن تبيّض صفحة أبشع المجرمين!

وفي بعض الأحيان كنت أكتب بيد وأكفكف دموعي بالأخرى، فيتوقف دوستويفسكي عن الإملاء ويقترب مني صامتاً ويقبّل رأسي بحنان.





28. الرقابة

نصح الأطباء دوستويفسكي أن يكرر العلاج في الخارج بعد أن كانت له نتيجة محمودة في العام الفائت. فطلبنا له من جديد جواز سفر في أبريل 1879.

ولم يكن الأمر، ونحن نقيم في أرياف نوفغورود، بنفس السهولة التي كنا نحصل بها على الجواز في بطرسبورغ. راجعت مأمور الشرطة في الضاحية لأستفسر عن الإجراءات المطلوبة، فاستقبلني بترحاب. لكنه أخرج من الجرار دفتراً سميكاً وقدّمه إليّ. فتحته، فانعقد لساني دهشة: «ملف الملازم الثاني المتقاعد فيودور دوستويفسكي الخاضع للرقابة السرية والمقيم حالياً في بلدة كذا، وعنوانه كذا. . .» قرأت عدة صفحات وقهقهت:

- يبدو أنك تعرف كل شيء عنا!

- نعم. أعرف كل ما يجري في عائلتكم، ويسرني أن زوجك حسن السلوك ولم يسبب لي متاعب حتى الآن.

- هل أبلغه هذا الإطراء؟ - سألته ساخرة، فأجاب بسذاجة:

- نعم، وآمل ألا يخلق لي مشاكل في المستقبل.

عندما أبلغت دوستويفسكي ضاحكة بقصة الرقابة اكتأب كثيراً، فقد آلمه أنهم يراقبونه حتى الآن رغم ولائه اللامتناهي للقيصر والوطن. وأدركنا حينها سبب تأخير مراسلاتنا. ولم يكن دوستويفسكي طلب رسمياً رفع الرقابة عنه، خصوصاً بعد أن أكد له أشخاص مطلعون أنه لم يعد خاضعاً للرقابة السرية طالما سمحت له السلطات بإصدار مجلته «يوميات الكاتب». والحقيقة أن الرقابة لم تُرفع إلا عام 1880 بأمر من موظف كبير التمسه دوستويفسكي. (تفيد مصادر أخرى أن الرقابة التي لاحقت الكاتب أكثر من ربع قرن رفعت عنه في صيف 1875 لكنه لم يعرف بذلك إلا بعد خمس سنين عندما قدم الطلب الذي تشير إليه زوجته آنّا دوستويفسكايا في مذكراتها). ومهما يكن من أمر فقد عاش دوستويفسكي منذ عام 1859 بهوية إقامة وقتية في بطرسبورغ شأن عشرين ألف مشرد من سكانها ممن لا يحملون هوية دائمة. ولم يكن الرجل يمتلك منزلا خاصاً به. وليس له من الأموال غير المنقولة سوى قطعة أرض مستنقعة في محافظة ريازان خلفتها زوجة خاله لعدد كبير من الورثة ولم يستلم حصته من تلك التركة إلا قبيل وفاته بعامين. وبعد أن رحل عنا إلى جوار ربه تمكنت أنا من شراء المنزل الريفي الذي كنا أمضينا فيه عدة سنين على سبيل الإيجار.

29. ألكسي

تركنا الريف عائدين إلى العاصمة في الخريف بعد أن رزقت بابني الثاني ألكسي في 10 أغسطس 1875. وتحسنت أوضاعنا عموماً خلال عام 1876. لم تحدث لزوجي نوبات صرع من زمان، والأطفال في صحة جيدة، وديوننا أخذت تتضاءل شيئاً فشيئاً، ومجلتنا الشهرية «يوميات الكاتب» تحقق نجاحاً. وسع دوستويفسكي اتصالاته وصار يتردد على محافل علية المجتمع فيحظى بالترحاب وبتقدير رفيع لطيبته وأريحيته فضلاً عن موهبته الأدبية. ومع ذلك كان بعض الأدباء يسيئون إليه ربما بدافع الحسد.

واصلنا إصدار المجلة في عام 1877، ومع ازدياد نجاحها المعنوي والمادي ازدادت الصعوبات المرتبطة بالتوزيع والاشتراكات والمكاتبات وما إلى ذلك. كما اشتد بدوستويفسكي الحنين إلى الأدب الصرف. فقرر في نهاية ذلك العام أن يوقف المجلة لسنتين أو ثلاث ويعكف على كتابة رواية جديدة. كانت في ذهنه آنذاك أربعة مشاريع لا تكفي عشر سنوات لإنجازها. كان يريد أن يؤلف رواية عن كانديد الروسي

ورواية عن يسوع الناصري ومرثية الأربعين، بالإضافة إلى الشروع بكتابة مذكراته. ولم يتحقق أي من تلك المشاريع.

ذات مرة، في خريف 1877، عرّج دوستويفسكي مع صديق له على إحدى عرّافات العاصمة، فتنبأت له بشهرة عظيمة ومصيبة أليمة. وبالفعل جاءته اثناء مهرجان 1880 الأدبي في موسكو شهرة تفوق التصور. وفي 16 مايو 1878 توفي ابننا الأصغر ألكسي. وكان ألم زوجي، وألمي، يفوق التصور أيضاً.

كان يحب صغيره «أليوشا» حباً متميزاً، مأساوياً رقيقاً، وكأن هاجساً يوحي إليه بقرب الفجيعة.

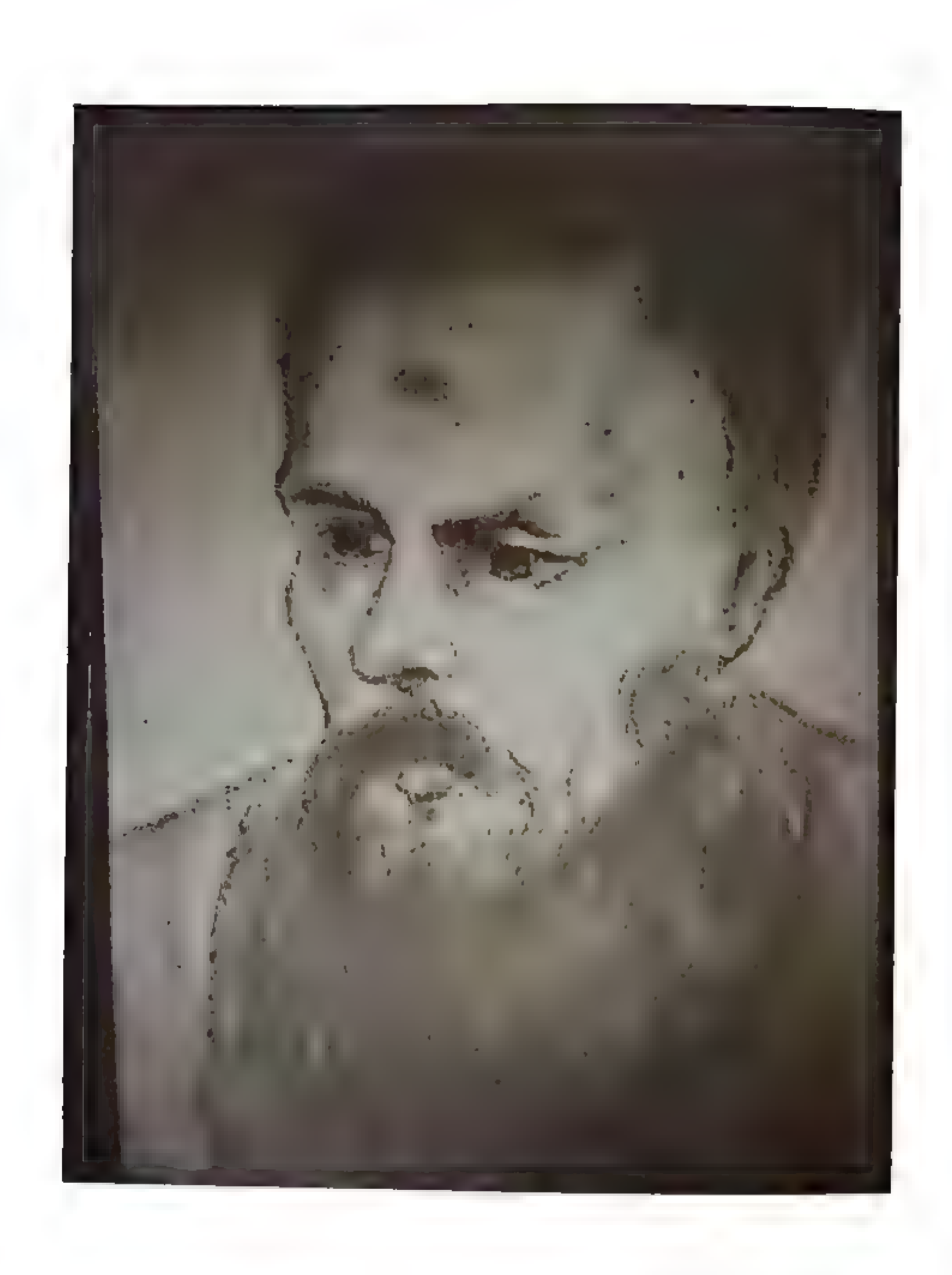
كان يحز في نفسه بخاصة أن الطفل توفي في نوبة من الصرع الذي ورثه عنه. ولم يخبرني دوستويفسكي بالفأل الذي قرأته له العرافة إلا بعد وفاة ابني. تبدل حالي واختفت بشاشتي المعهودة واستولت عليَّ لامبالاة مطلقة. عشت على ذكريات السنوات الثلاث الأخيرة، ذكريات صغيري الفقيد.

وتحمَّل دوستويفسكي المصيبة بصمت جعلني أخشى عليه هو أيضاً. وكان يحاول أن يخفف عني أحزاني. وفيما بعد عمد إلى وصف الكثير من أفكاري وشكوكي وآلامي، بل أورد حتى كلماتي بالحرف الواحد، في «الإخوة كارامازوف»، في فصل «المؤمنات»، حيث تعرض أم مفجوعة بوليدها كل ما تعانيه من آلام على شيخ الدين زوسيما (في خلوة النساك).

30. الحرب

رأينا تحشداً حول باعة الصحف في شارع نيفسكي الرئيسي. توقفت العربة فشققت طريقي بين الجموع، واشتريت صحيفة فيها ما كان الجميع ينتظرونه من زمان: «بلاغ 12 أبريل 1877 عن دخول القوات الروسية الأراضي التركية». كان ذلك هو الإعلان الرسمي عن بدء الحرب الروسية العثمانية. قرأ زوجي البلاغ وأمر الحوذي أن يمضي بنا حالاً إلى كاتدرائية قازان. كان فيها جمع من المصلين. ذاب دوستويفسكي بينهم. وكنت أعرف أنه في المناسبات المشهودة يفضل الصلاة في ركن منزوٍ هادئ دون أن يراه أحد من معارفه. فتركته وشأنه. وبعد نصف ساعة مضيت إليه فوجدته يبتهل في تأثر وذهول حتى أنه لم يعرفني للوهلة الأولى.

وفيما بعد ظل يتابع الأحداث ونتائجها الخطيرة بالنسبة إلى الوطن الحبيب. حتى أنه احتفظ بالبلاغ المذكور مع الوثائق التي يعتز بها، فهو يعتبر المشاركة في الحرب الروسية العثمانية 1877-1878 فاتحة لأداء «الرسالة التاريخية للأمة الروسية في توحيد البشرية، والشعوب السلافية في المقام الأول، على أساس المحبة والأخوة المسيحية» على حد تعبيره.



31. ثالث الشعراء

في نهاية 1877 كان دوستويفسكي في أسوأ حال، إذ أن نيكولاي نكراسوف أحد أوائل الذين اعترفوا بموهبته وساعدوه ليشق طريقه في الوسط الفكري آنذاك قد شارف الموت. كان زاره مراراً أثناء مرضه. وعندما بلغه نبأ وفاته في 27 ديسمبر تأثر من الصميم وأمضى تلك الليلة يتلو بصوت مسموع أفضل قصائد الشاعر الراحل. فخشيت عليه من الصرع ولازمت مكتبه حتى الصباح.

وبعد ثلاثة أيام جئنا للمشاركة في تشييع جثمان نكراسوف. كان في مقبرة دير «نوفوديفيتشيه» حشد غفير أغلبه من الشبان. وقبل أن يهال التراب على التابوت في القبر المكشوف ألقى دوستويفسكي بصوت متهدج كلمة مقتضبة قوَّم فيها موهبة الفقيد مؤكداً فداحة الخسارة التي تكبدها الأدب الروسي. ثم نشر في «يوميات الكاتب» مقالة مطولة عنه اعتبرها معظم الأدباء أفضل دفاع عن نكراسوف الذي اختلفت فيه الآراء وانقسم حوله النقاد بين مستحسن ومستهجن. وأعاد له دوستويفسكي مكانته المستحقة في روضة الشعر، فهو في رأيه ثالث شعراء روسيا المجددين بعد بوشكين وليرمونتوف.

32. تولستوي

في مطلع 1878 ألقى الفيلسوف اللامع فلاديمير سولوفيوف، وكان في مقتبل العمر، سلسلة محاضرات عامة في الفلسفة حظيت بإقبال منقطع النظير. وكنت حضرتها مع دوستويفسكي. في أثناء إحدى المحاضرات لاحظنا أن صديقنا نيكولاي ستراخوف قابلنا بجفاف خلال الفرصة واختفى بلمح البصر على غير عادته. وعندما ذكّرته بموعد الأحد، فهو يتناول طعام الغداء عندنا في الآحاد، التفت إلينا وأجاب: طبعاً، أنا ضيفكم الدائم. وعلى الغداء بعد أيام سألناه عن تصرفه الغريب ذاك وعن سبب زعله علينا فأجاب ضاحكاً:

- معاذ اللّه! كيف أزعل عليكما؟ كل ما في الأمر أني جئت حينها برفقة الكونت ليف تولستوي وقد اشترط عليّ ألا أعرفه على أحد من الحضور، مما جعلني أتحاشى الجميع.

- عجيب! كان معك تولستوي؟! - هتف دوستويفسكي مبهوتاً- مع الأسف أني لم أقابله. طبيعي أني ما كنت سأفرض عليه تعارفاً لا يرغب فيه. ولكن لمَ لمْ تهمس في أذني أنك معه؟ كان بودّي أن ألقي ولو نظرة خاطفة عليه.

- أنت تعرفه من صوره- واصل ستراخوف ضحكته.

- ما قيمة الصور؟ وهل تغني عن المقابلة الشخصية؟ لن أغفر لك هذه الفعلة يا نيكولاي.

وظل دوستويفسكي آسفاً على تلك الفرصة المضيعة. أما أنا فقد التقيت الكونت ليف تولستوي مرة واحدة في موسكو عام 1902 وكان لي معه حديث. قبلها تعرفت على عقيلته الكونتيسة صوفيا أندرييفنا والتقيتها مراراً منذ عام 1885. فهي تزورني عندما تصل إلى بطرسبورغ ونتشاور في أمور الطباعة والنشر خصوصاً. وأعرّج عليها حتماً كلما زرت موسكو. ولم يصادف أن وجدت الكاتب الكبير في البيت، كونه يقيم أساساً في ضيعته بضاحية «ياسنايا بوليانا». وحالفني الحظ بعد سنتين، فوجدته ذات مرة. كان متوعكاً بعد نوبة التهاب الكبد. استقبلني، مع ذلك، أحر استقبال. ودار الحديث بالطبع عن المرحوم زوجي. وقال تولستوي إنه سيظل يشعر بالأسف الشديد لأنه لم يتعرف في حينه على دوستويفسكي. وعندما ذكّرته بمحاضرة سولوفيوف استغرب وأناح باللائمة على مرافقه الذي لم يخبره. وأضاف: كان دوستويفسكي عزيزاً عليّ، ولعله كان الكاتب الوحيد الذي يمكنني أن أسأله الكثير ويمكنه أن يرد بالكثير.

33. «خلوة النساك»

بعد وفاة ابننا الأصغر ألكسي كاد دوستويفسكي يقضي غماً وكمداً. فنصحته بالسفر إلى «خلوة النساك» بمقاطعة كالوغا في أواسط روسيا، ذلك الدير المنعزل الذي غدا محجة للمفكرين والأدباء وسواهم من ذوي المشاعر المرهفة والنفوس القلقة التي تنشد السلوى والهدوء والطمأنينة في رحاب الإيمان، وتنهل من منابع الحكمة على يد شيخ الدين. وكان بين المشاهير الذين زاروا الدير القائم منذ القرن الرابع عشر نقولاي غوغول وليف تولستوي ونقولاي ليسكوف وإيفان تورغينيف.

كان دوستويفسكي متردداً في الرحيل إلى الدير لوحده رغم رغبته القديمة في رؤيته. وتمكنت أن أقنع فسيفولود سولوفيوف الذي كان ينوي السفر إلى هناك في ذلك الصيف أن يصطحب زوجي.

ومع أنني أعتبر هذا الرجل الهائم في أجواء الفلسفة واحداً «من أهل الله» إلا أنني كنت متأكدة أنه سيسهر على دوستويفسكي فيما لو أصابته نوبة صرع في الطريق الطويل.

في أواخر يونيو 1878 ارتحلا. عاد دوستويفسكي من

«خلوة النساك» أكثر هدوءاً واطمئناناً بعد أن التقى شيخ الدين زوسيما مع الرعية مرة، ثم اختلى به مرتين في حديث صادق كان له وقع عميق في نفسه. وفيما بعد أورد دوستويفسكي مواضع من هذا الحديث في الجزء السابع من «الإخوة كارامازوف»، وأجاد في وصف شخصية شيخ الدين ومعتكفه وصومعته وكل ما رآه بأم العين.

عدنا من الريف إلى بطرسبورغ في الخريف كالعادة، واستأجرنا شقة جديدة بدلاً من الشقة التي يذكّرنا كل شيء فيها بفجيعتنا بابننا. وأمضى دوستويفسكي في الشقة الجديدة بقية حياته حتى توفي بعد عامين.

لم يفارقنا الحزن شتاء، لكن الأمور سارت على منوالها حسب الظاهر. واصل دوستويفسكي العمل في «الإخوة كارامازوف» حتى تمكن من إنجاز الوجبة الأولى بحوالي مئتي صفحة نُشرت في مجلة «البشير الروسي» عدد يناير 1879.

34. «أفكر في الموت»

مرت الشهور الأولى من عام 1879 بهدوء. واستمر دوستويفسكي بكتابة روايته، وشارك في أمسيات أدبية خيرية عديدة، فكان يلقي فصولاً من مؤلفاته، وخصوصاً الرواية الجديدة «الإخوة كارامازوف»، ويستقبله الجمهور بمنتهى الحفاوة والتكريم. رافقته في كل تلك الأمسيات الممتعة وساعدته على قدر المستطاع حتى قال لي مرة «أنت حامل سلاحي». وبالفعل كنت أحمل الكتاب الذي يتلو مقتطفات منه وآخذ معي أقراص السعال ومنديلاً إضافياً وبطانية نلف بها كتفيه وعنقه كيلا يصاب بالبرد في الطريق، وما إلى ذلك من الحاجيات التي جعلته محقاً في نعته ذاك. لكن المؤسف أن الغيرة عاودت دوستويفسكي مراراً في تلك الأمسيات، فعكرت الجو عليّ وعليه.

وفي الربيع انتقلنا إلى الريف كالعادة. وكان البروفسور كوشلاكوف أصر على زوجي أن يسافر إلى ألمانيا للعلاج بالحمامات بعد انقطاع دام ثلاث سنوات. وعندما حل الصيف ارتحل دوستويفسكي إلى مدينة أيمس وتوجّه في الحال إلى

طبيب هناك. فوعده هذا الأخير بأن «مياه كرينهين المعدنية ستعيده إلى الحياة». وكتب لي زوجي يقول: «فحصني الدكتور أورت فوجد أن جزءاً من الرئة غيّر موضعه وكذلك القلب تزحزح من مكانه المعتاد وهو الآن في موضع أبعد. كل ذلك بسبب الانتفاخ الرئوي. إلا أن القلب سليم تماماً، ولا يشكل تبدل الموضع خطراً يذكر، كما يقول الطبيب. وهو ملزم بالطبع أن يهدئ من روع المريض. ولكن إذا كان الانتفاخ وهو في طوره الأول قد فعل هذا كله فماذا ينتظر منه فيما بعد؟ على أي حال، أملي كبير في المياه المعدنية».

أفزعني رأي الطبيب الألماني. فقد كنت في السنوات الأخيرة أرى زوجي في أحسن حال، ولم أتوقع أن المرض يسري في بدنه على هذا النحو.

علقت آمالي أنا أيضاً على مياه كرينهين، فقد أسعفته كثيراً فيما مضى. وكنت أتمنى أن يجد دوستويفسكي في أيمس من يبدد وحدته، لكنه مع الأسف لم يجد أحداً من معارفنا طوال الأسابيع الخمسة التي أمضاها هناك. وكتب إليّ أنه يعاني من الوحدة القاتلة والصمت: «تلك ليست مجرد وحدة، إنها صمت أخرس، حتى أني أكلم نفسي أحيانا كالمجنون... فقدت قابلية النطق، ومنذ أربعة أسابيع لم أسمع صوتي. وأفكر في الموت طول الوقت».

35. بداية العام الأخير

بدأ عام 1880 بافتتاح «مؤسسة دوستويفسكي» للتوزيع بالمراسلة. كانت أحوالنا المالية متردية رغم نجاحنا في تسديد الديون التي لاحقت زوجي منذ الستينات. وما دفعنا لفتح المؤسسة التجارية لتسويق المطبوعات هو تدهور صحة دوستويفسكي واستفحال الانتفاخ الرئوي وخوفنا أن يعجز قريباً عن الكتابة، ففكرنا في توفير بعض المال لليوم الأسود.

تحمست للمشروع كثيراً، لكنني كنت واثقة أن النجاح لن يكتب له إلا بتسجيل المؤسسة باسم «فيودور دوستويفسكي» مما حوّله رسمياً إلى «تاجر» ووفر لخصومه حجة إضافية للنيل منه على صفحات الجرائد متصورين بسذاجة أنه يشارك فعلاً في نشاط هذه المؤسسة المتواضعة التي أغلقت أبوابها بعد شهرين من وفاته.

وعلى العموم لم يكن لدينا في بداية هذا العام ما يبرر الشكوى. فإن صحة دوستويفسكي في أعقاب علاجات الصيف الفائت تحسنت على ما يبدو، كما تضاءلت نوبات الصرع. وطفلانا في صحة موفورة. و«الإخوة كارامازوف» تحقق نجاحاً

لا ريب فيه. ومؤسستنا التجارية بدأت خطوات موفقة ومطبوعاتنا تحظى بإقبال واسع. كل ذلك جعل دوستويفسكي في أحسن حال. ورغم انشغاله في كتابة المتبقي من روايته كان يزور أصدقاءه ويتردد على الصالونات الأدبية ويلتقي مشاهير عصره من العلماء ورجالات المجتمع وسيداته. وقد حضر مناقشة رسالة الدكتوراه التي تقدم بها الفيلسوف فلاديمير سولوفيوف إلى جامعة سان بطرسبورغ في «نقد المبادئ التجريدية» وشارك في أمسيات أدبية كثيرة. وكان، كما أسلفت، يستأسر المستمعين ببراعته وتعبيريته، رغم صوته الرفيع الواهن، وببساطته وعدم تقيده بأساليب فن الخطابة، حتى أنه عندما تلا مقطعاً من «الجريمة والعقاب» (حلم راسكولنيكوف حول الحصان القتيل) رأيت الحاضرين مخطوفين وقد ارتسم الرعب على وجوههم، والبعض يبكون، ولم أتمكن أنا نفسي أن أحبس دموعي. ولم يكن دوستويفسكي يقتصر على تلاوة مؤلفاته، فهو يقرأ في تلك الأمسيات والندوات مقتطفات من غوغول وبوشكين وغيرهما. وأذكر أن الجدران كادت تهتز من التصفيق بعد أن ألقى دوستويفسكي قصيدة «النبي» (ترجمها نجاتي صدقي في كتابه «بوشكين»، سلسلة «إقرأ»، القاهرة، 1954).

36. تمثال بوشكين

في 26 مايو 1880 كان سيصار إلى إحياء أضخم مهرجان تشهده روسيا لتكريم ذكرى أمير شعرائها ألكسندر بوشكين. وتلقّى دوستويفسكي، شأن سائر كبار الأدباء والمفكرين، دعوة للمشاركة بكلمة في الاحتفالات التي ستقام في موسكو.

عكف دوستويفسكي على إعداد كلمته. واهتم كثيراً بالأقاويل المتعارضة التي شاعت في العاصمة بطرسبورغ بصدد مضامين الخطب التي سيلقيها في المهرجان ممثلو جناحي الفكر الروسي: القوميون المتقيدون بالنزعة السلافية والعصريون الغربويون. وكان دوستويفسكي، وهو من الفريق الأول، يريد أن يضمّن خطابه عن بوشكين كل ما أثقل صدره خلال هذه السنين من أفكار بخصوص رسالة الأمة الروسية الأرثوذكسية المؤمنة.

كان في نيتنا أن نرتحل إلى موسكو مع طفلينا. فإنْ أبقيناهما مع المربية فسيشتد قلقي عليهما، وإنْ تركت زوجي يسافر وحده فسيشتد قلقي عليه. إلا أن القرار جاء بعد أن أفزعتنا كلفة السفر والإقامة طوال فترة المهرجان. فرحل دوستويفسكي وحده.

تأجل افتتاح المهرجان بسبب وفاة الإمبراطورة الأم. وبدلاً من أسبوع أمضى دوستويفسكي في موسكو 22 يوماً كنت خلالها أتقلب على الجمر مع أن رسائله تتوارد عليّ كل يوم. وسبب مخاوفي وعذابي أن الطبيب الروسي الذي فحص دوستويفسكي قبلها أفضى إليَّ سراً أن المرض اللعين استفحل في الأونة الأخيرة وأن الانتفاخ الرئوي في حالته الراهنة يشكل خطراً على حياة زوجي. فالشرايين في الرئتين غدت رقيقة هشة ويمكن أن تتمزق وتنفجر لأية حركة مفاجئة أو أية انفعالات شديدة، محزنة كانت أم سارة لا فرق. ثم إني كنت أخشى عليه من نوبة الصرع المزدوجة التي لم تداهمه من فترة، ويتوقع أن تصيبه الآن.

وإذا حدثت له في الفندق فسيقوم، كعادته بعدها، قبل أن تزول الغشاوة عنه ويأخذ في البحث عني هناك دون أن يدرك بأني بعيدة، وسيعتبرونه مجنوناً ويزجون به في دار المجاذيب. إلا أن شيئاً من ذلك لم يحدث والحمد للّه.

في 6 يونيو 1880 أزيح الستار عن تمثال بوشكين في قلب روسيا. وألقى دوستويفسكي كلمته الشهيرة في اختتام المهرجان، في يومه الرابع. وعاد إلى الفندق متعباً وفرحاً لاستقبال الجمهور الموسكوبي الممتن الذي كرّمه بإكليل ضخم من الغار.

أخذ قسطاً من الراحة. وفي ساعة متأخرة من الليل مضى إلى تمثال بوشكين مجدداً. توقفت عربته في الساحة الخالية من

السابلة في آخر الليل. نزل منها يحمل إكليله الثقيل. وضعه عند قاعدة معلمه العظيم، وركع أمامه ثم سجد حتى لامس الأرض.

(معروف أن بعض كبار الكتّاب الروس، ومنهم ليف تولستوي، قاطعوا مهرجان بوشكين احتجاجاً على الصراعات السياسية التي رافقته. وقال سالتيكوف - شيدرين في تبرير غيابه: «كاد العاقل والمجنون، تورغينيف ودوستويفسكي، أن ينتزعا أمجاد بوشكين ويقتسما ثمرة مهرجانه»).

عاد دوستويفسكي إلى بطرسبورغ فرحاً سعيداً. إلا أن الفرحة لم تدم طويلاً. فبعد نشر خطابه عن بوشكين تجنت عليه الصحف والمجلات ورمته بوابل من الانتقادات والتهم والافتراءات، بل وحتى الشتائم المقذعة بسبب ما ورد في ذلك الخطاب. وقلب لدوستويفسكي ظهر المجن بعض من الذين كانوا استمعوا إليه في موسكو بإعجاب وشدوا على يده مهنئين. اعترض المعترضون هذه المرة على فكرة دوستويفسكي القائلة بأن الأمة الروسية أمة متنورة تجاوزت التخلف بتبنّيها تعاليم المسيح، وزعموا أن هذه الأمة جاهلة ولن تقوم لها قائمة ما لم تعالج وتزق بحقنات حضارية من الغرب. رد دوستويفسكي على تلك التهجمات جملة وتفصيلاً في مقال نشره في العدد الوحيد والأخير من مجلته «يوميات الكاتب» لعام 1880. وأثار المقال ضجة صاخبة في الوسط الأدبي أعادت الأمور إلى نصابها في تقويم بوشكين والأمة الروسية حضارياً وفي رد الإعتبار لدوستويفسكي نفسه.

هدأ روع زوجي بعض الشيء ، فعاد يواصل كتابة «الإخوة كارامازوف». كان عليه أن ينهي الجزء الرابع بأكمله، حتى فرغ منه بحلول أكتوبر 1880.

وفي مطلع ديسمبر أصدرنا طبعة مستقلة من الرواية بثلاثة آلاف نسخة نفدت في أيام معدودات. فما أعظم فرحة دوستويفسكي بهذا النجاح! إنه آخر حدث سارّ في حياته المشحونة بالمنغصات والآلام.



37. النهاية

لم يعد ثمة موجب للإجهاد بعد أن أفلحنا في تسديد ديوننا وصارت مجلة «البشير» مدينة لنا بحوالي خمسة آلاف روبل. إلا أن دوستويفسكي لا يجد سبيلاً للراحة. فهو يعدّ العدة لإصدار مجلته «يوميات الكاتب» عامين آخرين. وينوي كتابة روايته الثانية عن الإخوة كارامازوف، على أن تاتي بنفس الأبطال تقريباً بعد عشرين عاماً من أحداث الرواية الأولى، وتغدو أعمق منها وأشد إثارة.

أمضى الأسبوعين الأولين من يناير 1881 في أحسن حال، ولم تقع له نوبات صرع من ثلاثة شهور. فتصورنا أن الشتاء سيمر بسلام.

زارنا كثيرون يوم الأحد 25 يناير وزوجي في صحة جيدة. وليس هناك إطلاقاً ما يشير إلى ما سيحدث بعد ساعات.

استيقظ دوستويفسكي في اليوم التالي كعادته ظهراً وأخبرني أن نزيفاً طفيفاً حدث له في الليل. تدحرجت المحبرة تحت خزانة الكتب، فاضطر أن يزحزح الخزانة من مكانها، فنزف الدم من فمه. ولقلة ما نزف من دم لم يقلق كثيراً ولم يوقظني

ساعتها. وفي النهار كان هادئاً يمزح مع طفليه. إلا أن الدم سال من جديد شريطاً رفيعاً على لحيته في حوالي الخامسة. فصرخت في هلع رهيب. وعندما وصل الطبيب بعد ذلك وفحصه شخب الدم غزيراً هذه المرة وأغمي عليه.

غير أن الدكتور أكد أن لا خطر على حياته وقال إن الدم سيتخثر في الشريان الرئوي المنفجر ويسد الثغرة، لاسيما وأن ما نزف منه في المرات الثلاث لا يتجاوز قدحين. توقف النزيف فعلاً نهار 26 يناير. ومع ذلك لم يغمض لدوستويفسكي جفن خلال الليل.

طلب مني أن أحضر الإنجيل وأشعل شمعة وقال: «سأموت اليوم». فتح الإنجيل لا على التعيين وأعطاني إياه، فقرأت فيه: «وإذا السموات قد انفتحت له فرأى روح اللّه نازلاً مثل حمامة وآتياً عليه» («متى»، الإصحاح 3: 13-17) كرر دوستويفسكي مما قرأت «وإذا السموات قد انفتحت له» وأضاف: «ألم أقل لك يا حبيبتي إني سأموت اليوم؟».

وفي التاسعة من صباح 26 غفا بهدوء ويدي في يده. إلا أن النزيف أيقظه في الحادية عشرة. والمنزل يغص بالحاضرين في انتظار عودة الطبيب الذي وصل في حوالي السابعة مساء. آنذاك انتفض دوستويفسكي فجأة من دون سبب واضح ورفع رأسه فشخب الدم على وجهه من جديد. ولم تسعفه مكعبات الجليد. أغمي عليه وشعرت أن النبض يكاد يضيع...

وفي الثامنة والدقيقة الثامنة والثلاثين أسلم الروح.

في الأول من فبراير 1881 شيع جثمان فيودور دوستويفسكي إلى مثواه الأخير في موكب عفوي مهيب لم تشهد بطرسبورغ مثله إلا في مقتل الإمبراطور ألكسندر الثاني بعد شهر من ذلك التاريخ!!

تعقيب: (أفادت آنّا غريغوريفنا، في موضع آخر من مذكراتها، أن رجلاً ثقيل الظل، تحفظت عن ذكر اسمه، زارهم في 26 يناير ودار بينه وبين دوستويفسكي نقاش حاد في موضوع فكري. إلا أن ابنتهما لوبوف فيودوروفنا دوستويفسكايا كتبت في مذكراتها المنشورة بالألمانية أن شقيقة دوستوفسكي زارتهم في ذلك اليوم وحدثت بينها وبينه مشادة حول تركة خالهما انفتح بعدها النزيف الذي أودى بحياة الكاتب).


ПОЧТА СССР 1959
Н.В. ГОГОЛЬ
40 к
ВЕЛИКИЙ РУССКИЙ ПИСАТЕЛЬ


ПОЧТА СССР · 1971
4 к
НИКОЛАЙ АЛЕКСЕЕВИЧ
НЕКРАСОВ
1821
1877


ПОЧТА СССР
М.Ю. ЛЕРМОНТОВ
40 к